المكتبة الصغيرة

(٤)



عبد العزيز الرفاعي

الطبعة الأولى
ربيع الآخر ١٣٩١ هـ
يونيـــه ١٩٧١ م

العنوان : من خط وتصميم الخطاط السعودي الفنان :
حمد كليب الحارثي

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله أولاً وأخيراً .

والصلاة والسلام على نبينا محمد

والرضوان لصحابته وآله أجمعين

« قال كعب بن مالك :

– يا رسول الله ماذا ترى في الشعر ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

– إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . »

مقدّمة

لهذه الرسالة قصة ..

كنت اقرأ شيئاً في كتاب « رياض الصالحين » للامـــام النووي ..

وانا بين الحين والحين ، أحب ان ارجع الى هذا الكتاب ، فأقرأ فيه سطوراً ، او اقرأ صفحات ، استروح بها ، وأفيء إليهـــا ..

وقرأت في هذه الرياض ، حديث كعب بن مالك رضي الله عنه ، الذي يقص فيه قصة تخلفه وزميليه عن يوم تبوك ..

واستوقفني هذا الحديث ..

وطفقت اتأمله .. ثم اتأمله .. مرة بعد مرة ، واذا انا امام قطعة ادبية ماتعة .. واذا انا ازاء ذهنية مرتبة واعية .. هي ذهنية كعب بن مالك الصحابي الانصاري الخزرجي الشاعر ..

ولم اعجب كثيراً ان يصوغ هذا الحديث احساس شاعري

مرهف .. هو احساس كعب بن مالك .. احد مشاهير شعراء الانصار !

ولكني عجبت كثيراً، ان لا تُلقى الاضواء على مثل هذه النماذج النثرية .. وان لا نعرف كعباً رضي الله عنه الا شاعراً .. ولا نعرفه اديباً ناثراً قاصاً .. كما هو في هذا الحديث !

وكنت على ابواب عطلة عيد الفطر ..

وبرقت في ذهني خاطرة ان افرغ لدراسة حياة كعب رضي الله عنه فيما ينفسح لي من فراغ عطلة العيد ..

وأخذت أرجع الى ما بين يديّ من مراجع ..

ووجدتني اقرأ قصائد من شعره هنا وهناك ..

ووجدتني مشدوداً الى هذا الشعر .. ايضاً ..

ووجدت امامي اكثر من خاطرة ..

تستبد بي رغبة ان اكتب عن حياة كعب ، وان ألقي اضواء على نثره ، وان اعنى بشعره جمعاً ودراسة ..

وتحولت الفكرة الأولى من مقال قصير او طويل ، الى فكرة جمع ديوانه ، وتقديم دراسة عنه ، ضماً الى ترجمة حياته ..

ولكن .. أليس لكعب ديوان شعر منشور من قبل ..؟

واخذت استقصي .. في الوقت الذي شرعت فيه اكتب فيه صفحات متواليات من هذا المشروع الأدبي المتواضع .. فقد كانت ايام العطلة تلح علي ان اهتبلها .. ومضيت قدماً ..

ثم علمت بعد ان فرغت من فصول هذه الرسالة الا اقلها ، عن صدور ديوان لكعب بن مالك رضي الله عنه منذ اربع سنوات خلت ، جمعه وحققه الاستاذ « سامي مكي العاني » من بغداد، وقدم بين يديه دراسة عن الشاعر ، وقد نال به درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة .

ثم وقفت — من بَعْد — على هذا العمل القيم فأثلج صدري ما بذل فيه صاحبه من جهد جدير بالتقدير ..

وقد وفر علي فكرة جمع شعر كعب رضي الله عنه، من كتب المغازي والسير والتاريخ ، فصرفت الفكرة إلى دراسة حياة الأديب الشاعر كعب بن مالك فحسب .

وبرغم ذلك .. فقد وجدت ان مجال البحث يتسع ويتشعب .. ووجدت الاسبوع الذي افترضته لانهاء هذه المهمة الأدبية التي انتدبت اليها نفسي ، يجر بعده اسابيع ، ووجدتني بين اكداس من المراجع ، بعضها جاءني به اخوة اصفياء ..

حتى فرغت من اعداد هذه الرسالة المتواضعة .

ولا ازعم لنفسي انني استطعت ان أجمع فيها كل اخبار كعب رضي الله عنه ، ولا انني حللت عناصر شعره ووضعته في مكانه بين شعر صدر الاسلام ولا انني قارنت بينه وبين تربيه حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، رضي الله عنهم جميعاً ، فلو أنني فعلت كل ذلك لخرجت بكتاب كبير لا برسالة صغيرة كهذه ..

بل لم يكن ذلك من اهدافي .. ولا يتفق مع فكرة هذه المكتبة الصغيرة ، التي تقدم فائدة مضغوطة ، في حجم ضئيل ، بثمن زهيد .

ولكني مع ذلك جهدت — كل الجهد — ان ارسم ملامح بارزة من حياة كعب بن مالك ما وسعني الى ذلك سبيل وان أقرب شعره الى النفوس والافهام، وان ألمح الى مكانته الشعرية في صدر الاسلام .

ولم يكن الطريق أمامي ممهداً .. ولكنه كان واضحاً ..

لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من شعر كعب في الجاهلية ..

ولم يحفظ لنا شعره كله في الاسلام .. فليس لكعب رضي

الله عنه ديوان شعر محفوظ .. معروف المكان .. فبالرغم من ان صاحب «كشف الظنون» يحدثنا في الصفحة ٨٠٨ من المجلد الاول من كتابه عن ديوانه .. الا ان هذا الديوان لا يعرف له الآن مقر ، او هذه على الأقل ، هي النتيجة التي توصل اليها الاستاذ «سامي مكي العاني» الذي تولى جمع شعر شاعرنا من بطون الكتب .. وهو العمل الذي كدت ان أقوم به ..

ولم تتوفر بين يدي دراسة مسبقة عن حياة كعب الا نتفاً هنا او هناك ، وإلا هذه الدراسة التي قام بها الاستاذ العاني ، والتي لم أقف عليها الا بعد ان فرغت من دراستي او كدت ، بيد انها كانت لي ذات نفع لا ينكر ، فقد أفدت منها اشياء جديدة ، اشرت اليها في مواطنها ، اعترافاً بفضله وسبقه ..

بل لقد حملني الجهد القيم الذي اضطلع به الاستاذ العاني ، ان اطرح على نفسي سؤالاً كان لا بد ان يلح عليّ ؛ هو : الا تُغني هذه الدراسة التي قام بها الأستاذ العاني عن هذه الدراسة التي عنيت بها ؟ وابادر فأصرح انني كدت اصرف النفس عنها .. لولا انني تذكرت قصة البداية .. ألم يحملني على دراسة كعب رضي الله عنه نص نثري ..؟ ألم انطلق الى

دراسته اديباً يجيد صوغ العبارة ، ويحسن سرد القصة ..؟ قبل ان افكر في امره كشاعر جهير ؟ أليس في هذا ما يجعل لرسالتي هذه منطلقاً آخر مغايراً لأي جهد آخر يتناول حياة كعب ، وشخصيته الفنية ... من زاوية جديدة ..

بلى .. احسب ذلك ..

وشجعني هذا على ان اسوق ترددي الى طريق الحزم .. وان أقدم هذا المجهود المتواضع آملاً ان أضيف به شيئاً مذكوراً الى دنيا الأدب.. بيد انه خيل الي ايضاً ، انني ربما تطرقت الى مواطن من البحث جديدة لم تطرق من قبل ، ولو انها من القلة بمكان كبير ..

* * *

وكانت هناك حوافز أخرى ، بعضها ظاهر وبعضها خفي ، لاخراج هذه الدراسة في هذا الحجم الصغير ، المشجع على القراءة السهلة العاجلة .. منها على سبيل المثال لا الاستقصاء ، ان الامة العربية والاسلامية اليوم في ظرف استنفار ، يجب ان نستشعره بعمق بالغ ، ويجب ان نجند له كل طاقاتنا ، ويجب ان يكون في مقدمة هذه الطاقات القوى الأدبية ، والقوى الاعلامية .. والثقافية .. وان نضرب لذلك الأمثلة ، ونلتمس

اليه القدوات ، ونضع لاجله النماذج ، ونبرز في طريقـــه البطولات .. فقد حشد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لخصوم الاسلام الرجال والسلاح ، وشهر في وجوههم ايضاً ، سلاح الاعلام ، فجند شعراء الانصار .. وكان من بينهم كعب رضي الله عنه .. وكذلك ينبغي ان نفعل في حربنا مع اسرائيل ، وان كعباً رضي الله عنه لمثل من الأمثلة العالية لبطولة السيف والقلم ، ما احرانا ان نبرزه ، لنذلل لا على أهمية هذا السلاح الأدبي فحسب ، بل وعلى ان الفن الموجه يعطي ثماره يانعة اذا صدقت النية ، وخلا من التكلف ، بل وعلى ان الأديب في حالات الاستنفار ينبغي ان يكون صاحب قلم .. وصاحب بندقية معاً .

على ان في حياة كعب رضي الله عنه أكثر من مثل عال ، صالح للقدوة ، من اظهرها هذا الموقف العظيم الذي وقفه من اغراء الملك الغساني الذي اراد ان يستغل المقاطعة الأدبية التي فرضها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ليغريه ويجتذبه اليه ، ويحول هذا السلاح الأدبي القوي ليشهر في وجه الاسلام لا من اجله .. ولكن كعباً رضي الله عنه كان اكبر من هـــذا الاغراء بكل ما يحمله إليه من دنيا وجاه .. فصمد له ايمانه العميق ،

وآثر الله ورسوله .. لأنه مؤمن بقلبه وعقيدته .. فكان ايمانه اثبت من ان يجتثه عرض دنيوي زائل مهما كان عريضاً . وكانت قاعدته الاخلاقية الصدق مع نفسه ومع الآخرين .

والامة العربية والاسلامية اليوم في كفاحها ضد الصهيونية ، وضد خصوم الاسلام اينما كانوا ، أحوج ما يكونون لهذا السلاح المعنوي الذي استعمله الرسول للدلالة على سخطه على الذين تخلوا عن واجب الجهاد المقدس في موقعة تبوك ما لم تعرف اعذارهم الحقيقية .

ان الذين ينشقون على صفوف الجهاد المقدس ، ويخرجون على اجماع الامة الاسلامية ويتخلون عن الاهداف الاسلامية العليا ، أحق بالنبذ .. واحق بالمقاطعة .. واحق ان يهملهم المجتمع الاسلامي فلا يعتبرهم منه .. ولا يلتفت إليهم ..

هذه بعض امثلة الحوافز الظاهرة ..

فما هي أمثلة الحوافز الخفية ..؟

بي أمل كبير يلح ان ارى في المكتبة العربية معجماً مفصلاً دقيقاً شاملاً كاملاً لصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله عنهم جميعاً .. يضم شتات ما جاء في المصادر الكبيرة ، ويتبع نظام الموسوعات الحديثة وترتيبها واظهارها ..

وهو عمل ضخم ، ينبغي ان تحشد له جهود ضخمة ، وامكانيات كبيرة .. فهو فيما يخيل الي اكبر من ان يتسع له جهد فرد .. وان كان ذلك ممكناً .. فقد ضرب اجدادنا في هذا السبيل امثلة رائعة .. فهل اقول الآن : قد اختلف الزمن ؟ واختلفت المعايير .! وتغيرت الطاقات ؟!

لقد قام فريق من الكتاب والباحثين بدراسة عدد من مشاهير الصحابة .. بحيث يصح ان تعتبر هذه الجهود نواة مكتبة طيبة في حيوات أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام . ولكن ليس هذا هو العمل المعجمي الذي احلم به ومعي الكثيرون ..

ايكون من الحوافز الخفية ان أضع لبنة صغيرة عن حياة صحابي اديب شاعر ، وكأنما اكتب مادته في موسوعة الصحابة التي أحلم بها ..؟

وبعد .. فلا يفوتني ان اوجه الشكر الخالص الى كل اولئك الاصدقاء الاصفياء الذين اعانوا على هذا العمل سواء بالارشاد الى بعض مصادره ، او بتوفيرها ، او بالتشجيع ، او

في النشر والطبع ، او بغير ذلك .

ومن الله تعالى استمد العون ، ومنه التمس التوفيق ، وباسمه ابدأ .. وبحمده انتهي ..

عبد العزيز الرفاعي

شوال ١٣٩٠

ديسمبر ١٩٧٠

الفَصلُ الأولُ

نسبهُ وسيرتهُ



من هو كعب ؟

ابو عبد الله كعب بن مالك الانصاري ، ابوه مالك بن ابي كعب بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سَلِمة (بكسر اللام) بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة السَّلِمِي وساردة هو ابن يَزيد بن جُشَم بن الخزرج ، والخزرج من الأزد وهم من قحطان .

كان كعب بن مالك يكنى في الجاهلية بأبي بشير فكناه النبي صلى الله عليه وسلم ابا عبد الله ، وكان يقال له ايضاً ابو عبد الرحمن . وعبد الرحمن وعبد الله من اولاده ولعل عبد الله هو أكبرهم .

اما ابوه مالك بن ابي كعب (واسم ابي كعب عمرو) فهو من مشاهير رجال يثرب قبل الاسلام ، كان شاعراً شجاعاً ، وله في حروب الأوس والخزرج التي كانت بينهما ذكر وآثار[1] ولم يكن له ولد غير كعب .

---

(١) الاغاني : اخبار كعب بن مالك ونسبه .

اما امه فهي ليلى بنت زيد بن ثعلبة ، من بني سلمة ايضاً[٢] .

وزوجته هي عميرة بنت جبير بن صخر بن أمية بن خنساء ابن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلِمة السلمية ايضاً وهي صحابية انصارية بايعت الرسول، وصلت الى القبلتين، وجاء عنها انها سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتزوج ايضاً من امرأة اسمها خيْره بالخاء او حيرة بالحاء .. وهي ايضاً من رواة حديث رسول الله .

وتزوج من صفية امرأة من اهل اليمن[٣] ، ومن ام ولد ايضاً [٤] .

واولاده هم عبد الله وفضالة ووهب ومعبد وخولة وسعاد، وكل هؤلاء امهم عميرة بنت جبير[٥] .

---

(٢) السهيلي في « الروض الأنف » ج ٢ ص ٣٢٣

(٣) و (٤) من « ديوان كعب بن مالك » تحقيق ودراسة سامي مكي العاني ، وقال ايضاً ان له زوجة أخرى من المهاجرات السابقات .

(٥) الاصابة : كتاب النساء ترجمة عميرة بنت جبير .

وعبد الرحمن وعبيد الله ومحمد ، وقد يكون هؤلاء من خيرة امرأته الأخرى .

وله ابنة اسمهـــا كبشة وهي زوجة ثابت بن أبي قتادة الانصاري .

ومن اخوته عـُرف سهل وسراقة .

من هم بنو سَلِمة ؟

بنو سَلِمة هم الفرع الخزرجي الذي ينتمي اليه كعب بن مالك كما مرّ في نسبه .

وسَلِمة في اللغة بكسر اللام، وليس في العرب سَلِمة بكسر اللام غيرهم ، والنسبة اليهم كما في « لسان العرب » سَلِمى بكسر اللام ايضاً ، وقد ورد في الاصابة عند نسبة كعب بن مالك (السَلَمي) بفتحتين ، وهو في ذلك يخالف القياس .

وتاريخ هذا البطن من الانصار تاريخ مشرف ولهم مواقف تاريخية تنم عن اصالة ، وعن تماسك ، وعن تحمس للدين الاسلامي ، بعد ان انتشر في ربوع المدينة ..

واكتفي هنا ببعض الاحاديث التي لها دلالتها الكبيرة على اصالة هذا البطن ، وحماسته ، وصدق ايمانه ، وتفانيه في سبيل الدعوة ..

اراد بنو سَلِمة ان ينتقلوا قرب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم (حرصاً منهم على أداء فروضهم ، وليكونوا اقرب الى مركز الاشعاع) فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : « انه قد بلغني انكم تريدون ان تنتقلوا قرب المسجد؟ فقالوا : نعم يا رسول الله قد اردنا ذلك . فقال : بني سلمة ديارَكم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم . رواه مسلم . وفي رواية .. ان بكل خطوة درجة ، رواه البخاري ايضاً .

وهذا يدلنا على ان مجتمع بني سلمة مجتمع صالح في مجموعه ، يبحث عن الخير ليستزيد منه ، ويريد ان يكون أقرب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي موقعة أُحد التي ظهر بها جانب عظيم من بطولة كعب ابن مالك ، صاحب هذه الترجمة ، وقف عبد الله بن عمرو بن حرام السلمي ، موقفاً بطولياً من اول المعركة حتى استشهد .

كان اول مواقعه حينما شهد عبد الله بن ابي بن سلول ينخذل عن رسول الله بثلث الناس قبل بداية المعركة ، فاخذ ينصحهم قائلاً : يا قوم اذكركم الله ان لا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم ..

قالوا : لو نعلم انكم تقاتلون لما اسلمناكم ولكن نرى انه لا يكون قتال ..

واخذ يحاورهم ، فلما استعصوا عليه قال لهم : ابعدكم الله اعداء الله ، فسيغني الله عز وجل عنكم نبيه صلى الله عليه وسلم ، وانزل الله تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) وقوله تعالى (وليعلم الله الذين نافقوا وقيل لهم قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان ، يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم والله اعلم بما يكتمون)

وبذلك سجل القرآن الكريم حوار هذا البطل السلمي .

وفي معركة أُحد نفسها ، ظهر تكتل آل سلِمة وحسن دفاعهم ، وثباتهم في المعركة .

فقد روى ان الحباب بن المنذر يحوس المشركين كما تحاس الغنم ، وعندما اشتملوا عليه حتى قيل قد قتل ، برز والسيف في يده ، فافترقوا عنه ، ونادى يا آل سَلِمة ! فاقبلوا اليه عنقاً واحداً : لبيك داعي الله .

أسرتـــه

كان كعب بن مالك من أسرة مرموقة المكانة في يثرب ، فقد كان ابوه مالك رجلاً مهيباً شجاعاً شاعراً ، اضطلع بدور فعال في حرب قومه « الخزرج » مع الأوس ، وفي كتـــاب « الاغاني » ضمن ترجمة ابنه كعب ، طَرَف من اخبار حروبه ومساجلاته الشعرية مع رجل اسمه برزع بن عدي من بـــني ظفر ، منها قصيدة بائية جميلة ، قالها بعد أن التقى مع خصمه برزع ومعه رجلان من قومه ، ونشبت بين الطرفين معركة ،

استخدمت فيها حجارة احدى حرات المدينة المنورة ، وثبت فيها مالك حتى انصرفوا عنه ، وهو يصور في قصيدته هذه ثباته ومكانته ، وهذه بعض ابياتها :

لعمر ابيها لا تقول حليلتي :
ألا فرّ عني مالك بن ابي كعبِ
أقاتل حتى لا ارى لي مُقاتِلاً
وادعو اذا غُم الجبان من الكرب
أبى لي ان أعطي الصغار ظلامة
جدودي وآبائي الكرام أولو اللب
فهم يضربون الكبش تبرق بيْضه
ترى حوله الابطال في حَلَق شهبِ
وهم اورثوني مجدهم وفعالهم
فاقسمْ لا يزري بهمْ ابداً عقْبي

ان مالكاً يفخر بأجداده وآبائه الكرام ، ويحافظ على سمعتهم ، بل يذهب الى أبعد من ذلك بكثير فيقسم ان يحافظ عقبه على شرف أسرته ومكانتها[1] .

---

(١) بعد ان يورد ابو الفرج هذه القصيدة، يقول « انه « قد روي ان =

وفي قصيدة أخرى يفخر مالك بشجاعته ، ومكانة والده في العز والمكرمة مطلعها :

هل للفؤاد لدى ثنياء تنويل ؟
ام لا نوال فاعراضٌ وتحميلُ ؟

من ابياتها :

ولا أهاب اذا ما الحرب حرشها
الابطال ، واضطربت منها البهاليلُ
أمضي امامهم ، والموت مكتتع
قدماً ، اذا ما كبا فيهـــا التنابيل
عليّ فضفاضة كالنهي سابغة
وصارم مثل لون الملح مصقول
ولدنةٌ في يد سمراء تقلبها
بعامل كشهاب النار موصول

= الشعر المنسوب الى مالك بن أبي كعب ، لرجل من مراد يقال له : مالك بن أبي كعب ، فاذا سلمنا بهذا الشك ، فان هناك قصيدة مالك الأخرى صريحة في ذكر الخزرج ، وخصمه برزع ، عدا عن ان الاصفهاني نفسه ، يرجح ان القصيدة لمالك بن ابي كعب الخزرجي .

إني من الخزرج الغر الذين هُمُ
أهل المكارم لا يفنى لهم جيـــل
في الحرب انهل منهم للعدو اذا
شبت ، واعظم نيلا ان همو سيلوا
اشبهت من والدي عزاً ومكرمة
وبرزع مدغم في الأوس مجهول

اذن ، فقد اشبه مالك اباه ، وقد جاء ابنه واحفاده هم الآخرون على غراره شجعاناً شعراء..

فالأسرة ذات مجد عريق ، وذات أرومة شعرية تمتد لها اصول وفروع ، او كما يقول الاصفهاني : « ولكعب بن مالك أصل أصيل ، وفرع طويل في الشعر » وقد عد من شعراء هذه الأسرة ، قيس بن ابي كعب ، عم كعب بن مالك ، وكان هو ايضاً صحابياً ، شهد بدراً[1] ، وابنه عبد الرحمن بـــن كعب ، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، وعبد الرحمن ابن عبد الله شاعر ، ومعن بن زهير بن كعب شاعر ، وقد وصفهم ابو الفرج بقوله: «وكلهم مجيد مقدم[2]» ومنهم ايضاً

(١) الاصابة : ترجمة قيس بن بي كعب .
(٢) الاغاني .

ابن ابنه عمرو بن عبد الله ، والزبير بن خارجة بن عبد الله بن كعب ، ومعن بن عمرو بن عبد الله بن كعب ، والضحاك بن معن ، ومعن بن وهب بن معبد[1] .

وكما كان كعب بن مالك ، رضي الله عنه ، من رواة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخذ الحديث عنه ايضاً عدد من اولاده ، هم عبد الله وعبد الرحمن ، وعبيد الله ، ومعبد ، ومحمد[2] ، وابنته ام عبد الله بن أنيس[3] ، وكان ابنه عبد الله ، من اعلم الانصار[4] ،

وكانت زوجته «عميرة» ايضاً ، من رواة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سيرته :

لا يعرف بالضبط اين ولد كعب بن مالك ، رضي الله عنه ، ولا متى ولد .. ولكن اغلب الظن ان تكون ولادته في يثرب ،

---

(١) سامي مكي العاني في الديوان ص ١٢٤ .
(٢) الاصابة .
(٣) الاغاني .
(٤) الروض الأنف للسهيلي .

حيث تقيم اسرته ، وان يكون تاريخها حوالي سنة ٢٥ ق.هـ . (٥٩٨ م)[1] .

ونشأ وحيد ابيه ، واكبر الظن انه كان موضع حفاوة الوالد الشاعر ، وقد نشأ كعب فتى متعلماً عرف القراءة والكتابة[2] في محيط كانت تسوده الأمية يندر فيه القارئون الكاتبون ، وتهيأت له الفرص ليكون شاباً بارزاً في المجتمع اليثربي قبل الاسلام ، ثم في مجتمع مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد انتشار الاسلام ، حيث يعتبر احد ثلاثة شعراء من الانصار اشتهر أمرهم ، والشاعران الآخران هما : حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة .

ولم يكتف كعب بما تهيأ له من مجد الحسب ، بل ضم الى ذلك مجداً مكتسباً ، اعانه عليه ذهنية واعية ، مرتبة ، ولماحية ذكية ، وحاسة فنية ومشاعر رقيقة ، يدل على ذلك كله ، ما تبقى من شعره ، وما روى من حديث ، خاصة حديث التوبة

---

(١) « تاريخ الأدب العربي » للدكتور : عمر فروخ ج ١ ص ٣٢٣ ، أما الموسوعة العربية الميسرة فجعلت مولده حوالي ٥٩٦ م ووفاته ٦٧٣ م ، واختار محقق الديوان مولده سنة ٢٧ ق هـ .

(٢) حديث كعب الطويل عن توبته ..

الذي تجلت فيه لماحيته ، وصفاء تعبيره الفني ، ودقته ورقته .. وسأعرض لهذا النص الفني فيما بعد .

ويدل على ذلك ايضاً ان كعباً نبغ في وقت مبكر ، وذاعت شهرته كشاعر ، لأبعد من محيط يثرب الضيق ، فامتدت الى مكة وبلغت مسامع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما سيأتي في حديث بيعة كعب للرسول صلى الله عليه وسلم في البيعة الثانية (الكبرى) .

وكان كعب حينما اخذت دعوة الرسول الكريم طريقها في رفق وحذر بين سكان يثرب من الخزرج والأوس ، في مقدمة المتحمسين لها ، فلم تكد تصل اليه الدعوة الا وقد أصبح من المصلين المتفقهين[1] وكان في بعض ما روي عنه من الذين يصلون الجمعة وراء اسعد بن زرارة[2]. ويبدو انه كان يوم البيعة شاباً لم يتخطَّ العشرين بكثير ولكنه قام بنشاط مرموق فيها .. وقد روي عنه في تفصيل البيعة الكبرى أكثر من حديث .. وفي حديث له عنها يروي لقاءه برسول الله صلى الله عليه وسلم لأول مرة حينما حج مع قومه ومنهم عدد قد اسلم ، وعدد

---

(١) سيرة ابن هشام .

(٢) البداية والنهاية (باب اسلام الانصار) رضي الله عنهم ج ٣ ص ١٤٨

على دين قومهم .. لقد خرج مع البَراء بن معرور ، احــد زعماء الخزرج يريد ان يستفتي الرسول عن صلاته الى الكعبة ، فقد بدا له ان يتجه اليها في صلاته .. قال كعب : « وقد كنا عبنا عليه ذلك ، فلما قدمنا الى مكة قال لي : يا ابن أخي ! انطلق بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اسأله عما صنعت في سفري هذا فانه قد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم اياي فيه ! فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنا لا نعرفه .. لم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلاً من اهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قلنا : نعم .. قال : فاذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، فدخلنا المسجد، فاذا العباس رضي الله عنه جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه ، فسلمنا ثم جلسنا اليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا ابا الفضل ؟. قال : نعم هذا البَراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك .. قال كعب : فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشاعر ؟ قلت : نعم الى آخر القصة التي وردت في سيرة ابن هشام . ومن هذا السياق نعرف ان كعباً سبقته شهرته الى مكة

كشاعر ..

وبعد هذا اللقاء التمهيدي الذي تم للشاعر كعب بن مالك ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان لكعب اللقاء الثاني ، بين تلك المجموعة المباركة من الانصار الذين بايعوا رسول الله البيعة الثانية عند العقبة ، وتتكون من ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين .. وقد روى كعب هذه البيعة بتفصيل ، ونص على النقباء الاثني عشر في قصيدة له ..

وكان حديث كعب عن البيعة الثانية الكبرى بالعقبة عدا ما فيه من التفصيلات ، لم يخل من لمحات ، واستعارات فنية شاعرية ..

ويبدو مما روى كعب من احاديث انه كان يتمتع بذاكرة حية ، حفظت لنا أحداثاً هامة ، منها كما اسلفت ، قصة البيعة الكبرى ، ومنها حديث الثلاثة الذين خلفوا ، وهو الذي سأورد نصه ..

وقد كان كعب شديد الاعتزاز باشتراكه في البيعة الكبرى ، وهي عنده أهم من موقعة بدر ، وقد عبر عن ذلك في حديث التوبة حينما قال : « ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما احب ان لي بها

شهد بدر ، وان كانت بدر اذكر في الناس منها »[1].

وكان يتمتع ببعد في النظر ، وقدرة على استشفاف الأحداث
ها هو يتنبأ منذ يوم بدر ، بالفتح ، ويتوقع ان تتدفق خيل
لمسلمين تطلع من كداء ، يرقبها ابو سفيان :

فلا تعجل ابا سفيان وارقب   جياد الخيل تطلع من قباء
بنصر الله روح القدس فيها   وميكال فيا طيب الملاء

وقد روى كعب عن النبي عليه الصلاة والسلام ، عدداً غير
لليل من الاحاديث ، بلغ ثمانين حديثاً[2] وروى عنه جماعة
نهم ابن عباس وجابر ، وابو امامة الباهلي ، وعمر بن الحكيم ،
وعمر بن كثير بن افلح وغيرهم[3] ، وروى له البخاري ومسلم
وابو داود والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة[4] .

وشهد المشاهد كلها ، عدا غزوة بدر ، وتبوك ، اما بدر
فقد صرح بذلك في حديث التوبة إذ قال : « لم أخلف عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها الا في غزوة تبوك ،

---

(١) صحيح البخاري : باب غزوة تبوك .
(٢) الاعلام للزركلي
(٣) الاصابة .
(٤) « نكت الهميان في نكت العميان » .

غير اني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب احداً تخلف عنها، انما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عـير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد »[1]

اذاً فقد ذكر لنا كعب رضي الله عنه ان الخروج الى بدر لم يكن ملزماً ، ولكنه لم يذكر لنا عذره الشخصي في التخلف عن الخروج مع من كسب شرف يوم بدر[2] ، مكتفياً بشرف الانتماء الى ليلة البيعة الكبرى ..

اما تخلفه عن غزوة تبوك ، فهي قصة مشهورة نزلت فيه آيات من القرآن الكريم ، وقصها كعب نفسه في اسلوب نثري رفيع ..

كانت غزوة تبوك في رجب من السنة التاسعة من الهجر (اواسط أكتوبر سنة ٦٣٠ م) ، فقد دعا الرسول صلى الل

---

(١) صحيح البخاري : غزوة تبوك .

(٢) ذكر صاحب كتاب « الاعلام » في ترجمة كعب رضي الله عنه ا بدري ، وهذا مخالف لما حدث به عن نفسه . وقال انه شهد الوقائع ، ولم يستث ايضاً غزوة تبوك ، وكذلك قال الدكتور عمر فروخ في كتابه « تاريخ الأد العربي » الجزء الأول : انه شهد مع الرسول جميع الغزوات الا تبوك، و يستثن بدراً ، قال ابن كثير في ترجمته لكعب ج ٨ من البداية والنهاية « وغل ابن الكلبي في قوله أنه شهد بدراً » .

عليه وسلم الناس ليتأهبوا للغزوة مصرحاً بها، وكان الزمن صيفاً شديد الحر ، وكان الكثير من المسلمين لا يجدون رواحل ، وكانت المسافة بعيدة، وكل هذه العوامل جعلتها حرية بالاسم الذي حملته وهو « غزوة العسرة » ، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم[١] .

ومع اشتداد حرارة المدينة المنورة في الصيف ، تطيب ظلالها ، وتونع ثمارها ، وتميل نفوس الشعراء إلى طيب الظل والتمر ، وتميل نفوس اصحاب المزارع والبساتين الى الحفاظ على حصاد الصيف ، وفواكهه ، ونتاج النخيل ، وقد كان كعب رضي الله عنه صاحب حس مرهف ، ومزاج شاعري ولعل نفسه قد خامرها شيء من هذا السفر البعيد في حمارة القيظ[٢] ، ومالت الى الظل والماء ، فتردد في الخروج ، وطال تردده ، فلم يشعر الا وقد خرج الناس ، وجد بهم المسير واذا هو حيث هو من داره ، فاستولى عليه ندم شديد بعد ان سار الجيش ، خاصة وانه كان موسراً يملك

---

(١) « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » الآية ١١٧ من سورة التوبة .

(٢) يقول ابن الاثير في « أسد الغابة » في ترجمة كعب رضي الله عنه « واما تبوك فتخلف عنها لشدة الحر » .

بدل الراحلة الواحدة راحلتين .

واشتدت حسرته ، حينما رأى معظم المتخلفين من المنافقين او المطعون في دينهم ، واستبد به الحزن ، فلما عاد رسول الله جاءه المخلفون ، يلتمس كل منهم عذراً ، ويحلف يميناً ، الا كعباً الذي آثر ان لا يلتمس عذراً كاذباً ، فصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فعل رجلان آخران هما مُرارة ابن الربيع العَمْري ، وهلال بن أُمية الواقفي ، فقد صدقا أيضاً رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأوكل امرهم الى الله عز وجل ، وأمر بأن لا يُكلموا ، كنوع من المقاطعة الادبية ، ثم امرهم ان يعتزلوا نساءهم بعد ان مرت على مقاطعتهم أربعون ليلة من خمسين ، ولقد تعرض كعب رضي الله عنه خلال هذه المدة لاغراء عظيم ، صمد له وكان عظيماً حقاً في تصرفه .. فقد قدم نبطي من انباط اهل الشام ، يحمل بضاعة من الحبوب ليبيعها في أسواق المدينة ، وأخذ يسأل عن كعب رضي الله عنه ، حتى ارشده الناس اليه ، فاذا به يحمل كتاباً من ملك غسان ، وكانت بينه وبين قوم كعب قرابة ونسب[1] ، فلما قرأ كعب

---

(١) يدل على ذلك قوله :

وغسان أصلي وهمو معقلي فنعم الارومة والمعقل

عن الديوان .

الكتاب اذا فيه : «أما بعد ، فانه قد بلغني إن صاحبك قد جفاك ! ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ! فالحق بنـا نُـواسك ! »[1] .

اذن فقد استغل الملك الغساني ، الفرصة ، فرصة رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة كادت تجتاح المملكة الغسانية ، وفرصة غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من موقف المتخلفين ومنهم كعب ، وهو شاعر يعتد بشعره ، ويعتبر أحد الاسلحة الأدبية الفعالة ضد العدو ، فأراد ان يضرب ضربته هذه ليكسب هذا السلاح الأدبي ، وليجعل منه حديثاً يروى ، وليغدق على كعب ما تغدق الملوك على الشعراء ، ليجعل منه لساناً لاهجاً بمديحه ، وصحيفة سيارة تتحدث بمزاياه ، وتنشر اخباره ..

ولكن كعباً ، كان عميق الايمان ، حاد الذكاء ، فأدرك خطر هذه الدعوة الماكرة ، وادرك ان وراءها ضياعاً حقيقياً ، وخروجاً عن هذا المجتمع الاسلامي المثالي ، وعن هذه الصحبة الخيرة في ظل رسول الله ، عليه الصلاة والسلام حيث يتنزل جبريل بكلام الله عز وجل !.

---

(١) صحيح البخاري : باب غزوة تبوك ، حديث كعب .

اذاً فأي بلاء هذا ؟ اي امتحان عسير تتعرض له نفس بشرية ضعيفة لولا ايمانها ويقينها ..؟

كيف تصرف كعب ؟

لقد تيمم الرجل العظيم بالرسالة التي تحمل اغراء دنيوياً عظيماً .. تيمم بها الى التنور (الفرن) فأوقد بها ناره ، وصرف الرسول الغساني .. وظل ينتظر أمر الله فيه بصبر عجيب !

ولم يطل انتظاره ، فقد جاء الفرج بعد خمسين ليلة اذ زفت اليه بشرى نزول آيات التوبة في سورة التوبة، حيث شملته وزميليه (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[1] .

وقد كان فرح كعب رضي اللهعنه، بنزول هذه الآيات بتوبته

---

(١) الآيات ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ من سورة التوبة .

وزميليه عظيماً ، عبر عنه بوسائل شتى ، فقد خر ساجداً لله حينما بلغه النبأ السار ، ونزع ثوبيه فكسى بهما البشير ، ولم يكن يملك من الثياب غيرهما ، حتى لقد اضطر ان يستعير ثوبين آخرين ليذهب لمقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واراد ان يخرج ماله كله صدقة لله ، وتعبيراً عن سروره البالغ ، لولا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم امره بأن يمسك عليه بعض ماله . !

والى جانب فرحته الكبرى بهذه التوبة تأتي من عند الله عز وجل ، فقد افرحه ايضاً هذا الثناء عليه بالصدق ، وانه أصبح وزميلاه مثلاً رائعاً لالتزام الصدق ، مهما ترتب عليه من نتائج .. واصبحوا قدوة يحث الله عز وجل على الاقتداء بها ، فقد ندّد الله عزّ وجل بالمنافقين الذين استساغوا الحلف على اعذارهم الواهية ووصفهم بالفاسقين وانهم رجس في قوله تعالى في الآية ٩٤ و ٩٥ من سورة التوبة : (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)

بينما قال عن الثلاثة الذين صدقوا الله ورسوله ، وهم كعب وزميلاه ؛ مُرارة ، وهلال : (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين).

ومن الجدير بالذكر هنا ؛ ان كعباً رضي الله عنه ، لم يكن رعديداً جباناً ، حتى يتخلف عن الحرب ، بل بالعكس كان بطلاً شجاعاً ، فهو رجل حرب ، كما هو رجل شعر ، بل هو رجل حرب بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قوله له : « انت تحسن صناعة الحرب »[1] .

ولقد كان الشعر والشجاعة في التاريخ العربي صنوين قلما يفترقان .

وتحدثنا سيرة كعب عن موقف من مواقف شجاعته ، بل تحدثنا عن ذلك حفيدته « عميرة بنت عبد الله بن كعب » عن ابيها عن ابيه ، انه لما انكشف الناس يوم أُحد كان كعب أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبشر به المسلمين حياً سوياً ، بعد ان عرَف عينيه تحت المغفر ، فأخذ ينادي : يا معشر الانصار ؛ ابشروا فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : فأشار إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان اصمت .

---

(١) عن الديوان ، نقلا عن زهر الآداب .

ثم دعاه فلبس لامته ، وألبس كعباً لامته (وكانت صفراء) وقاتل كعب يومئذ قتالاً شديداً ، حتى جرح احد عشر او سبعة عشر جرحاً [1].

وتدل هذه الرواية ، عدا عن شجاعته ، وبسالته ، على انه كان مقرباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان حجم لامته ، وحجم لامة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانا متقاربين ان لم يكونا متماثلين . وان هذا التصرف من رسول الله يعتبر تشريفاً وتكريماً لكعب رضي الله عنه [2].

وكان كعب في غير الحياة العسكرية ، رجلاً مهماً ، يثق فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويسند اليه بعض المهام ، وصل الينا منها ؛ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولاه في السنة التاسعة للهجرة ، صدقات اسلم وغفار ، وقيل جهينة ايضاً [3]. كما بعثه ينادي في الناس بمنى ، في حجة الوداع :

---

(١) شرح نهج البلاغة المجلد الرابع ص ٤٤٨ . ومجلة البيان الكويتية العدد ٥٣ ، اغسطس ١٩٧٠ مقال للدكتور احمد الشرباصي .

(٢) ذكر محقق الديوان ايضاً انه : «قيل ان مظهره عن بعد كان يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ففضل ان يكون هدفاً للمشركين بدلا من الرسول .

(٣) محقق الديوان .

ان ايام منى ايام أكل وشرب ، وذكر لله ، لينتهي الناس عن صيامهم[1] .

وارسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليضع علامات حدود حرم المدينة ، بريداً في بريد ، وذلك لمعرفة كعب بالكتابة والحساب[2] .

وقد عاش كعب رضي الله عنه طويلاً ، وعاصر الاحداث التي جاءت بعد انتقال رسول الله عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى ، وشهد حادثة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ،وتخلي بعض الناس عن نصرته ،وكان كعب رضي الله عنه فيما يبدو مقرباً الى عثمان ،فقد كان على عهده عامله على صدقة مزينة[3] ، فأسخطه ما حدث لعثمان رضي الله عنه ، كل السخط ، خاصة وقد ذهبت جهوده في تحريض الانصار على نصرته هباء ، وبعد ان اضطر الى اغماد سيفه استجابة

---

(١) محقق الديوان .

وجاء في منجد الأدب والعلوم ، انه داوى النبي لما جرح في احدى المعارك ، ولم اقف على هذا في اي مصدر آخر مما وصل الي من مصادر ، ومعنى هذا ان صح ، ان كعباً رضي الله عنه ، كان على معرفة بالطب ، او له بعض الخبرة فيه .

(٢) و(٣) محقق الديوان .

لطلب عثمان نفسه ذلك من مناصريه ، كان يشعر بحاسته المرهفة وفكره النير ان انفضاض الناس من حول عثمان ، والتخلي عن نصرته معناه ، تفرق كلمة المسلمين ، واضاعتهم للمعنى البعيد لوجود خليفة يجتمع الناس حول طاعته او كما قال :

ان يُتركوا فوضى يكن في دينهم
أمر يُضيِّق عنهمُ البلـــدانا

وكان من وفائه لعثمان رضي الله عنه ، انه كان احد نفر قلائل خرجوا لدفن جثمانه .

لقد ذهب ابو الفرج الاصفهاني ، في سياق ترجمته لكعب رضي الله عنه ، ان كعباً كان لا يميل الى علي رضي الله عنه ، وانه قعد عنه ، ولم يشهد حروبه ، وانه فاتحه في امر عثمان ، وحاوره فيه ، واعتزله ، وانه خرج مع حسان بن ثابت ومعهم النعمان بن بشير فالتحقوا بمعاوية رضي الله عنه ، وانه اكرمهم فأمر لكل من حسان، وكعب ، بألف دينار ، وجعل النعمان ابن بشير اميراً على حمص[1] ، ولكن ابن حجر قد تتبع هذا الخبر فقال في ترجمة كعب رضي الله عنه في « الاصابة » :

---

(١) الاغاني : اخبار كعب بن مالك .

« وقد اخرج ابو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني ، بسند شامي فيه ضعف وانقطاع ؛ ان حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، دخلوا على (عليّ) فناظروه في شأن عثمان ، وأنشده كعب شعراً في رثاء عثمان ، ثم خرجوا من عنده فتوجهوا الى معاوية فأكرمهم ..

وقد عمي كعب في خلافة معاوية ، ذكر صاحب «الاصابة» ان البغوي قال : بلغني انه مات بالشام في خلافة معاوية ، ورجح ابن كثير[1] انه توفي سنة ٥٠ هـ (اي ٦٧٠ م) بعد ان عاش نيفاً وسبعين سنة .

---

(١) ج ٨ من البداية والنهاية ص ٤٨ .

الفصل الثاني

شخصيته الفنية



شخصيته الفنية :

قلت في خلال الفصل السابق ، ان كعباً رضي الله عنه ، اشتهر قبل الاسلام كشاعر من شعراء يثرب ، ووصلت شهرته الى مسامع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما جاء في قصته اول لقاء تم لكعب مع رسول الله عليه الصلاة والسلام . مما يدل على علو مكانته في الشعر قبل الإسلام ، وقد دل على ذلك قول البغدادي في خزانة الأدب «كان مجوداً مطبوعاً قد غلب عليه في الجاهلية امر الشعر وعرف به »[1] .

وعندما هاجر الرسول الكريم الى المدينة ، واحتدم صراع العقيدة بين مجتمع المدينة المسلم ، ومجتمع مكة الذي كان ينافح عن دين آبائه ولئلا يخرج الأمر من سادة قريش فقد استخدمت الدعاية كسلاح فعال في هذه الحرب ، ودعاية تلك الأيـــام وسيلتها الأولى القوية ، هي الشعر .. فانطلق شعراء الجانبين يتجاوبون ويتعارضون ويتناقضون .. ويتناقدون ..

في المدينة المنورة يومئذ ثلاثة شعراء من الانصار اشتهر

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ص ٢٠ : المجلد الأول

امرهم ، حتى لا يكاد يذكر احدهم حتى يذكر معه زميلاه : حسان بن ثابت، شاعر الرسول ، وعبد الله بن رواحة ، الشاعر الشجاع القائد ، وكعب بنْ مالك الخزرجي الشاعر الفارس صاحب هذه الترجمة .

اما حسان رضي الله عنه ، فديوان شعره معروف ، وقد لقي نصيباً من العناية ، والدرس والبحث .

ووجد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه من يعنى بحياته وشعره[1] .

ولكني لم أقف على دراسة خاصة بحياة الصحابي الشاعر كعب بن مالك رضي الله عنه ، في كتاب مستقل ، وان كان قد عني بأمره دارسو الشعر الاسلامي ، او الشعر في صدر الاسلام، او شعر المخضرمين من الشعراء ، او شعر النقائض او بعض مؤرخي الأدب العربي بصفة عامة .. فجاءت دراستهم

---

(١) ذكر الدكتور – عمر فروخ في كتابه « تاريخ الأدب العربي » الجزء الأول في ترجمة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، في مراجعه كتاب « شاعر على سرير من ذهب » تأليف محمد جميل سلطان، طبع بدمشق في مطبعة الجامعة السورية ١٩٤٩ م ، ولم اقف عليه .

عرضية وليست مستقلة .

واشتهر كعب ، رضي الله عنه ، كشاعر فحسب ، فلم تنل نصوصه النثرية العناية الجديرة بها كنصوص فنية تجعل من كعب أديباً من أدباء النثر ، يمتاز نثره ببراعة السرد القصصي والتصوير الشاعري ، ولماحية الالتفاتة الفنية الذكية .. كما يتجلى ذلك في احسن صوره في حديث توبته .. وفي نصوص أخرى[1] .

وقد ألمح ابن حجر من القدامى ، الى الصياغة الفنية التي صاغ بها كعب حديث التوبة ، فقال : « .. وتخلف في تبوك ، وهو احد الثلاثة الذين تيب عليهم ، وقد ساق قصته في ذلك

---

(١) حينما كان هذا الكتاب ماثلا للطبع ، اطلعني صديق عزيز على العدد الثالث من المجلد الخامس عشر من مجلة « البعث الاسلامي » الصادر في شعبان ١٣٩٠ هـ (اكتوبر ١٩٧٠ م) وفيه مقال قيم لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابي الحسن علي الحسني الندوى بعنوان : « توبة كريمة مشرفة » تناول فيها حديث توبة كعب بن مالك ، ولم يفت ذهنه الوقاد الالتفات الى الجانب الأدبي في هذا الحديث ، فوصف كعب بن مالك بانه « الراوي الأديب البليغ » وقال عنه حين عرض قطعة فنية من حديث التوبة « وتمتع بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة والجمال ، وصدق التصوير ، وبراعة التعبير »

سياقاً حسناً وهو في الصحيحين »[1] .. لقد لفتت براعة السياق حس ابن حجر العسقلاني ، ولم يفته ان يسمي حديثه قصة ، وهو في الواقع قصة رائعة ..

وعُرف كعب في بعض مصادر الأدب القديمة بشوارد من شعره ، على طريقة القدامى في البحث عن اغزل بيت قالته العرب ، وافخر ، واشجع وامدح .. الخ .. فقد قيل عن كعب رضي الله عنه انه صاحب اشجع بيت وصف به شاعر قومه وهو قوله :

نصلُ السيوف ، اذا قَصُرن ــ بخطونا
يوماً ــ ونُلْحقها ، اذا لم تَلْحقِ [2]

وقيل عنه ايضاً انه صاحب افخر بيت قالته العرب[3] ، وهو قوله :

---

(١) الاصابة : ترجمة كعب بن مالك .

(٢) الاعلام : ترجمة كعب ، والاغاني ، في ترجمة كعب وفيها عن عبد الأعلى القرشي قال : قال معاوية يوماً لجلسائه : اخبروني باشجع بيت وصف به رجل قومه ، فقال روح بن زنباع : قول كعب بن مالك ، نصل السيوف . وسترد القصيدة في النماذج الشعرية .

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ترجمة كعب ، والبيت من قصيدة ترد في النماذج الشعرية .

وببئر بدر ، اذ يرد وجوهَهم
جبريلُ ـ تحت لوائنا ـ ومحمدُ

وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له : يا كعب ، ما نسي ربك (او ما كان ربك نسيا) بيتاً قلتَه !

قال كعب : وما هو يا رسول الله ؟

فقال : انشده يا ابا بكر . فأنشده :

زعمت سخينةُ ان ستغلب ربها
وليُغلبن مغالب الغلاب(1)

وكان لشعر كعب سيرورته واثره وفعاليته ، فقد روي ان كعباً رضي الله عنه قال بيتين من الشعر كانا سبباً في اسلام قبيلة دوس وهما :

قضينا من تهامة كل وتر
وخيبر .. ثم اغمدنا السيوفا

تخبرنا ؟ ولو نطقت، لقالت
قواطعهن : دوساً او ثقيفا

---

(1) المصدر نفسه ، وسيأتي الحديث عن هذا النص ، وسترد القصيدة في النماذج الشعرية .

فلما بلغ هذا الشعر قبيلة دوس قالوا : خذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف[1] .

اما ابن كثير فقد سماه شاعر الاسلام[2] .

وقال عنه الجمحي في طبقات فحول الشعراء انه شاعر مجيد

ومما يدل على علو منزلته ، ان عائشة رضي الله عنها كانت تحفظ شعره ، وترويه قالت : « الشعر منه حسن ومنه قبيح ، خذ الحسن ودع القبيح ، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك اشعاراً منها القصيدة فيها اربعون بيتاً ودون ذاك[3] » .

ومن مميزات كعب رضي الله عنه ، انه كان حاضر البديهة الشعرية ، وكان قومه من الانصار يعتزون ببديهته ، ويلجأون اليها في مواقف الفخر والاعتزاز .

روى صاحب الاغاني ، في ترجمته لكعب رضي الله عنه ، قال : رجز راجز من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

---

(١) الاصابة ترجمة كعب ، والقصيدة قيلت بعد فتح مكة .
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ترجمة كعب .
(٣) محقق الديوان عن السيوطي في مزهر علوم اللغة .

لم يغذُها مدٌّ ولا نصيفْ
ولا تُميرات ولا تعجيفْ

لكن غذاها اللبن الحـــريفْ
والمحض والقارض والصريفْ

فاحفظت الانصار ، حيث ذكر المد والتمر فقالوا لكعب ابن مالك : انزل ! فنزل ، فقال :

لم يغذها مـــد ولا نصيفْ
لكن غُذاها الحنظل النظيفْ

ومذقـــة كنظرة الحنيفْ
ينبت بـــين الزرب والكنيفْ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — اركبا ، اي ان الرسول انهى هذا الحوار لئلا يثير الحزازات القبلية .

ومن المواقف الدالة على حضور بديهته ، موقفه يوم خيبر ايضاً ، من مرحب اليهودي ، فقد خرج هذا من حصن اليهود مرتجزاً :

قد علمت خيبر اني مَرْحَبُ
شاكي السلاح ، بطلٌ مجرّبُ

اطعن احياناً ، وحيناً اضرب

اذ الليوث اقبلت تحــزّب

ان حماي للحمى لا يـُقربُ

وكان يبحث عن مبارز ، فأجابه كعب رضي الله عنه :

قد علمت خيبر ، اني كعبُ

وانني مــتى تُشب الحربُ

ماضٍ على الهول ، جريٌ صلبُ

معي حسام كالعقيق عضب

بكف ماض ليس فيــه عتب

تدككم ، حتى يذلَّ الصعب

واذا تتبعنا مواقف كعب الشعرية ، نجد معظمها في الرد على شتائم شعراء قريش قبل الفتح ، وفي الدفاع عن الاسلام ، ودحض مزاعم خصومه ، وامتداح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك تكاد تكون سيرة ابن هشام ، هي المصدر الأول لشعر كعب رضي الله عنه والشيء الكثير من شعر حسان ابن ثابت ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهما ، حيث أُنيطت بهؤلاء الشعراء الثلاثة مهمة الذب عن حياض الاسلام ، والرد على اعدائه ، ولذلك نجد الكثير من شعرهم الاسلامي

هو من شعر النقائض[1] ، وهو شعر يقوم على المفاخرة ، وقوة الحجة ، وحضور البديهة او الارتجال ، في كثير من المواقف ، واتسم شعر كعب وزميليه بالطابع القرآني ، وبالتعفف عن فحش القول ، أو الإيغال في الشتيمة ، فاكسبه ذلك اخلاقية ليست لنظيره من شعر الخصوم ، وان كان شعر الخصوم قد يمتاز بصفة عامة بالانطلاق الذي لا يحده سياج من التعفف .. ولا التزام محور خاص في التعبير اللفظي ..

وكان لشعر هؤلاء النفر من الانصار وقعه الشديد على قريش ، وغيرها من القبائل الضالعة معها ضد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد عبر الرسول الكريم عن ذلك فقال : لهذا اشد عليهم من وقع النبل[2] .

قال ابو الفرج الاصفهاني :

« وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بباب كعب ابن مالك ، فخرج ، فانشده ، ثم قال : ايه ! فانشده ، ثم

---

(١) المناقضة : هي ان ينقض شاعر ما قاله شاعر آخر . ويأتي بضد اقواله ، وغالباً ما يلتزم قافية الشاعر الآخر .
(٢) الاغاني لابي الفرج : ترجمة كعب .

قال : ايه ! ، فانشده ثلاث مرات فقال رسول الله : لهذا اشد عليهم من وقع النبل » .

ويفيدنا هذا النص ، ان الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان يعجبه شعر كعب ، وكان ينشده وكان يستزيده ، وكان يمتدح اثره البعيد على الكفار ، بل كان يدل على مواطن الاثارة في هذا الشعر ، سواء كان لكعب او لزميليه الآخرين .

قال صاحب كتاب الاغاني ، رواية عن سمّاك بن حرب قال : اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل : ان ابا سفيان بن حرب بن عبد المطلب يهجوك فقام ابن رواحة فقال : يا رسول الله ، ائذن لي فيه ، فقال : أأنت الذي تقول : فثبت الله ؟ قال : نعم يا رسول الله ! انا الذي أقول :

فثبّت الله ما اعطاك من حَسَنٍ
تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فقال :

وانت فعل الله بك مثل ذلك ..

قال : فوثب كعب بن مالك فقال :

يا رسول الله : ائذن لي .

فقال : انت الذي تقول « همت » ؟

قال : نعم يا رسول الله ! انا الذي أقول :

همت سخينةُ ان تغالب ربّها
وليُغلبن مغـــالبُ الغلاب

فقال :

اما ان الله لم ينس ذلك لك ![1]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعبىء هؤلاء النفر من الشعراء ، كما يعبىء الجيش .. خاصة بعد موقعة الاحزاب .

روى الاصفهاني عن الشعبي ، قال :

« لما انهزم المشركون يوم الاحزاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ونكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم اذى ، ويهجونكم .. فمن يحمي اعراض المسلمين ؟ فقام عبد الله بن رواحة فقال : انا . فقال : انك لحسن الشعر .

---

(١) الاغاني : ترجمة كعب .

ثم قام كعب ، فقال : انا . فقال : وانك لحسن الشعر[1]»

وقد اشتمل هذا النص ايضاً على ثناء الرسول عليه الصلاة والسلام على كل من عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك .

وقد اضطلع الشعراء الثلاثة بالمهمة التي عهد اليهم بها الرسول عليه الصلاة والسلام ، واختلفت في ذلك اهدافهم بعض الاختلاف ..

روى الاصفهاني ايضاً ، عن محمد بن سيرين انه قال :

« كان يهجوهم – يعني قريشاً – ثلاثة نفر من الانصار يجيبونهم[2] ، حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله ابن رواحة ، وكان حسان وكعب ، يعارضانهم بمثل قولهم[3] ، بالوقائع والايام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ! وكان عبد الله ابن رواحة يعيرهم بالكفر ، وينسبهم الى الكفر ، ويعلم انه ليس فيهم شر من الكفر ! فكان في ذلك أشد شيء عليهم قول حسان وكعب ! وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما اسلموا وفقهوا الاسلام ، كان أشد القول عليهم قول

---

(١) الأغاني ، ترجمة كعب .
(٢) اي على هجائهم .
(٣) اي يأتون بما يقابل أقوالهم .

ابن رواحة [1]»

واورد صاحب «أسد الغابة» نصاً آخر عن ابن سيرين قال :

«كان كعب بن مالك يخوفهم الحرب وكان حسان يقبل على الأنساب ، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر [2]»

واذا كانت سيرة ابن هشام تعتبر مصدراً هاماً في شعر كعب رضي الله عنه ، وفي اشعار النقائض بين شعراء المسلمين وشعراء الكفار ، فان المصدر الذي يليه في الأهمية هو كتاب الأغاني ، ويمتاز بانه جمع بعض اخبار ونصوص من شعر كعب رضي الله عنه في موضع واحد .

على ان شعر كعب رضي الله عنه ، لم يقتصر على النقائض ، فان كعباً كان شاعراً قبل ان تكون هناك نقائض بين شعراء الاسلام ، وشعراء الكفر .. ولكن النقائض الاسلامية حفظت لنا جانباً لا بأس به من شعر كعب ، وان ضاع منه جانب كبير ، فان كعباً رضي الله عنه كان شاعراً مكثراً ، سريع البديهة والارتجال ..

---

(١) الأغاني : ترجمة كعب .
(٢) «أسد الغابة» ترجمة كعب بن مالك رضي الله عنه .

ويبدو ان الرواة لم يهتموا كثيراً برواية شعر كعب في الجاهليـة .. فقـد كان ابانها شاعراً شاباً ، وان شعره آنذاك ، على شهرته في المجتمع اليثربي ، والمكي ، لم تكن له سيرورة كبرى تستطيع ان تنافس فطاحل الشعر الجاهلي ، كما يبدو ان كعباً آنذاك لم يطرق بعد أبواب الأسواق الشعرية لحداثة سنه او لأسباب اخرى لم ينقلها الينا التاريخ الأدبي .

واذا استثنيت النقائض ، التي سأخصها بحديث خاص ، فان هناك نصوصاً شعرية قليلة تدلنا على بعض الاغراض التي طرقها كعب رضي الله عنه ؛ ومن المهم ان نذكر ان هذه الاغراض ايضاً كثيراً ما تأتي ضمن قصائد النقائض نفسها .

وقد انتهى عهد النقائض الاسلامية بعد ان عم الاسلام الجزيرة ، فكان طبيعياً ان ينصرف شعر كعب رضي الله عنه ، الى اهداف أخرى ، وان لم تخل ايضاً من المعنى السياسي ، وكان من بين اغراضه الجديدة ذلك الشعر الذي قاله في نصرة الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ، أو في رثائه بعد ان قتل في الفتنة الكبرى ، وقد كان رثاؤه له مؤثراً ، خاصة في الوسط الانصاري ، حيث انحى باللائمة عليهم ، وذكرهم عهودهم ومواثيقهم في نصرة الاسلام ، والقائمين على عهده ..

ولنتأمل من هذا الرثاء المؤثر هــذه الأبيات من قصيدة طويلة بعض الطول[1] :

يا لهف نفسي اذ يقول : ألا أرى
نفراً من الانصار لي اعوانا ؟

... اني رأيت محمداً اختاره
صهراً ، وكان يعده خلصانا

محض الضرائب ماجداً اعراقه
من خير خندف ، منصباً ومكانا

عرفت له عليــا معد كلهــا
بعد النبي ، الملك والسلطانا

من معشر لا يغدرون بجارهم
كانوا بمكة يرتعون زمانــا

يعطون سائلهم ، ويأمن جارهم
فيهم ، ويُردون الكماة طعانا

فلو انكم ــ مع نصركم لنبيكم
يوم اللقاء ــ نصرتمو عثمانا !

---

(١) القصيدة في الاغاني : ترجمة كعب .

انسيتمو عهد النبي اليكمو
ولقد ألظ ووكد الايمانـــا

يقول ابو الفرج ، في روايته ، بعد ان انتهى من ايراد الابيات : فجعل القوم يبكون ويستغفرون الله عز وجل !

واورد ابو الفرج ايضاً ابياتاً لكعب رضي الله عنه ، من قصيدة يخاطب فيها الانصار ايضاً في أمر عثمان رضي الله عنه وهي :

فلو حلتمو من دونه، لم يزل لكم
مدى الدهر ، عزٌ لا يبوع ولا يشرى
ولم تقعدوا ، والدار كابٍ[1] دخانها
يُحرَّق فيها بالسعير وبالجمـــر
فلم ار يوماً كان أكثر ضِيقـــةً
وأقربَ منـــه للغواية والنكـــر

ونلحظ في هذين النصين صدق العاطفة ، وحرارة التعبير ، كما نلحظ ان كعباً رضي الله عنه ، كان جهير الصوت ، فيهما ، بعيد التأثير .

---

(١) كاب : اي مرتفع دخانها .

واهتمام كعب رضي الله عنه، بعد اسلامه بالمواضيع الاسلامية، جعله الى جانب توجيه فخره الى الجانب الاسلامي يتجه برثائه ايضاً الى هذا الجانب فتراه ينصرف الى رثاء ابطال المسلمين وشهدائهم، كما فعل – مثلاً – عقب غزوة أُحد، حينما رثى حمزة بن عبد المطلب، ونفراً من شهداء هذه المعركة، في قصيدته الجيمية :

نشجت ! وهل لك من منشج
وكنت متى تذكَّرْ تَلْجُجِ

تذكُّر قومٍ ، أتاني لهم
احاديث في الزمن الأعوج

فقلبك من ذكرهم خافق
من الشوق والحزن المنضج

وقتلاهمو في جنان النعيم
كرام المداخل والمخرج

بما صبروا تحت ظل اللواء
لواء الرسول، بذي الأضْوُج(١)

---

(١) الأضوج : جمع ضوج ، وهو منعطف الوادي .

غـــداة اجابت باسافيهـــا
جميعاً ، بنو الأوس والخزرج
واشياع أحمدَ اذ شايعـــوا
على الحق ، ذي النور والمنهج
فما برحوا يضربون الكماة
ويمضون في القسطل المرهج
كذلك حتى دعاهم مليك
الى جنة ، دوحة المَوْلج
فكلهمو مات حر البـــلاء
على ملة الله ، لم يُحرجِ
كحمزة لمـــا وَفَى صادقاً
بذي هبة صارم سَلْجَج
... ونعمان أوفى بميثاقـــه
وحنظلة الخير لم يحنـــح
عن الحق حتى غدت روحه
الى منزل فـــاخر الزبرج

ولكعب رضي الله عنه ايضاً قصيدة دالية ، قوية الحبك ، في رثاء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، يقول في مطلعها :

طرقتْ همومُك فالرقاد مسهّدُ
وجزعت ان سُلخ الشباب الأغيد

وسترد بتمامها في النماذج الشعرية ..

ومع ان كعباً رضي الله عنه ، كان جيد الرثاء ، الا انه يبدو ان فاجعته في موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عطلت ملكته الفنية ، أو أفحمتها ، فلم تصل الينا في رثائه صلى الله عليه وسلم ، الا قطعة واحدة ذات ثمانية أبيات[1] ، لا تعبر عن المعاني البعيدة التي يتركها فقد الرسول العظيم ، ولا عن هول الفاجعة فيه .. بيد انه يجدر بنا ان لا ننسى ان فقدان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حدثاً جللاً مذهلاً اطار صواب كبار الصحابة الاجلاء بما فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو من هو عقلاً واتزاناً ، فكيف لا يذهل الشعر ، وتكلّ القرائح ، وتجمد الدموع ؟ !

واذا تجاوزنا شعر الرثاء والفخر فانا نجد لكعب رضي الله عنه ، شعراً تاريخياً ، كهذا الشعر الذي يروي فيه بيعة العقبة الكبرى ، واسماء النقباء الأثنى عشر :

---

(١) الديوان ص ١٧٣ .

ابلغ ابيا انــه قال رأيه
وحان غداة الشعب والحين واقع
ابى الله ما منتك نفسك انه
بمرصاد امر الناس راء وسامع
وابلغ ابا سفيان ان قد بدا لنا
بأحمد نور من هدى الله ساطع
فلا ترغبن في حشد امر تريده
وألب وجمع كلَّ ما انت جامع
ودونك فاعلم ان نقض عهودنا
اباه عليك الرهط حين تبايعوا

ثم اخذ يسرد اسماء النقباء :

اباه البراء وابن عمرو كلاهما
وأسعد يأباه عليك ورافع

الخ ....[1]

ومن شعره التاريخي قوله في رثاء عثمان رضي الله عنهما :

---

(١) القصيدة في سيرة « ابن هشام » .

فكف يديه ثم اغلق بـــابه

وايقن ان الله ليس بغافلِ

وقال لمن في داره : لا تقاتلوا

عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل

ومنه قوله في غزوة بدر :

فجئنا الى موج من البحر وسطه

احابيش منهم حاسر ومقنّع

ثلاثة آلاف ونحن نصيـــة

ثلاث مئين ، ان كثرنا ، واربع

ولهذا الشعر اثره في تسجيل الاحداث التاريخية

وكان كعب وصافاً ، جيد الوصف والتخيل ، كما نلمس ذلك في قوله يصف السيوف :

وقد عريت بيض خفاف كأنها

مقابيس ، يزهلها لعينيك شاهر

وسيأتي فيما بعد ابداعه في وصف الدرع .

ومن صوره البديعة تشبيهه الفرس الضامرة الخفيفة خافقة الحشا بالجرادة الصفراء التي ألقت بيضها فاصبحت سريعة

الطيران :

وكل طمرة خفق حشاهـــا

تذف ذفيفَ صفراءِ الجراد

اما فخره فقد عرضت لبعضه في الحديث الآتي عن نقائضه .

اما هجاؤه ، فهو عف اللفظ ، لا تعدو شتائمه ان تكون في مثل هذه الألفاظ :

لفظ خبيث ، كقوله يهجو ابا عامر عبد عمرو بن صيفي ابن النعمان :

معاذ الله من عمل خبيث

كسعيك في العشيرة عبد عمرو

وكلفظ أخزى ، وأشنع في قوله يهجو ابن الزبعري :

فسل عنك في عليا معد وغيرها

من الناس من أخزى مقاماً وأشنع ؟

وقد يعير بانحطاط النسب وبالجبن وما الى ذلك[1]

---

(١) ص ٩٧ من الديوان وما بعدها . ومن ذلك ما جاء في مقدمة التوبة التي سترد في النماذج ، عن ابن الزبعري :

اما شعر العاطفة ، فاكبر الظن انه لم يبق منه شيء ، الا ابيات ، تتسم بجمالها ، وحسن وقعها ، وقد تكون تناهت الى الرواة متسربة الى ألسنتهم ، وإلا فقد انشغل كعب منذ اسلامه بالمهمة الكبرى ، وهي المنافحة عن الاسلام ، ومؤازرة الدعوة ، صارفاً اليها جهده كله وطاقاته جميعها :

على ان هذا القليل ، بل النادر من شعره العاطفي يتسم بتغليب العقل ، وزجر النفس عن الهوى ، اورد جامع الديوان هذين البيتين نقلاً عن حماسة البحتري، وذكر انه لم يجدهما في اي مصدر آخر(١) :

ولما رأيت الود ليس بنـافعي
لديه ، ولا راثلحالة مُوجَعِ

زجرت الهوى ، اني امرؤ لا يقودني
هواي ، ولا رأيي الى غير مطمع

واورد بيتين آخرين ، وكأنهما من القطعة نفسها :

= سألت بك ابن الزبعري فلم انبأك في العزم الا هجينا
خبيثاً ، تطيف بك المنديات مقيماً على اللؤم حيناً فحينا

(١) الديوان ص ٢٣١ و ٣٠٤ . حماسة البحتري ص ١٦٦ طبعة دار الكتاب العربي بيروت .

فلولا ابنة العبسي لم تلق ناقتي
كلا لا ، ولم تُوضِع الى غير مُوْضع
فتلك التي ان تُمس بالجرف دارها
وأمس بخزبي تمس ذكرتها معي[1]

وهما نقلاً عن معجم ما استعجم وقال ايضاً انه لم يجدهما في مصدر آخر .

---

(١) الديوان ص ٢٣٢ و ٣٠٤ ، والجرف موضع على ثلاثة اميال من المدينة جهة الشمال وخزبى موضع تلقاء مسجد القبلتين بها ، وهي دار بني سلمة قوم الشاعر .

الفَصْلُ الثَالِثُ

نقائضه



نقائضـــه :

المهمة الجلى التي ألقاها الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام على عاتق شعراء الانصار الثلاثة ، جعلتهم يضطلعون بالرد على قصائد الخصوم ، وكان كعب نشطاً في ميدان النقائض ، مكثراً ، وفياً لتبعته ، ملتزماً لها .

وأكثر ما ظهرت النقائض في اعقاب المعارك الكبيرة بين الاسلام وخصومه ، او في خلالها .

نلتقي بنقائض كعب رضي الله عنه ، وهو يرد على ضرار بن الخطيب بن مرداس أخى بني محـــارب حينما قال في يوم بدر :

وفخر بني النجار ان كان معشر
أصيبوا ، ببدر ، كلهم ثَمَّ صابر

وتردى بنا الجرد العجاجيج وسطكم
بني الأوس ، حتى يشفي النفس ثائر

فتترك صرعى تعصب الطير حولهم
وليس لهم الا الأمـــاني ناصر
وذلك انا لا تزال سيوفنـــا
بهن دم ، مما يحـــاربن مائـــر
وبالنفر الاخيار ، هـــم اولياؤه
يحامون في اللأواء ، والموت حاضر
اولئك ، لا من نتجت في ديارها
بنو الأوس والنجار ، حين نفاخر
هم الطاعنون الخيل في كل معرك
غداة الهياج ، الاطيبون الأكابر

فأجابه كعب رضي الله عنه :

عجبت لامر الله ، والله قـــادر
على ما اراد ، ليس لله قـــاهر
قضى الله ، يوم بدر ، ان نلاقي معشراً
بغوا ، وسبيل البغي بالناسَ جائر
وقد حشدوا ، واستنفروا من يليهمو
من الناس ، حتى جمعهم متكاثر

وسارت الينا .. لا تحاول غيرنـــا
باجمعها كعب ، جميعاً ، وعامر

وفينا رسول الله ، والأوس حوله
له معقل منهم عزيز ونـــاصر

وجمع بني النجار تحت لوائـــه
يُمشّون في الماذي والنقع ثـــائر

فلمـــا لقيناهـــم وكل مجـــاهد
لاصحابـــه مستبسل النفس صابر

شهدنـــا بان الله لا رب غـــيره
وان رسول الله بالحـــق ظاهـــر

وقد عريت بيض خفاف كأنهـــا
مقابيس يزهلهـــا لعينيك شاهر !

بهـــن ابدنا جمعهـــم فتبددوا
وكان يلاقي الحين من هو فاجر

فكُبَ ابو جهل صريعـــاً لوجهـــه
وعتبة ، قد غادرنه وهو عـــاثر

وشيبة والتيميَّ ، غادرن في الوغى
وما منهمو الا بذي العرش كافر

فامسوا وقود النار في مستقرهـا
وكل كفور في جهنم صائر
تلظّى عليهم ، وهي قد شَبَّ حميها
بزبر الحديد والحجارة ، ساجر
وكان رسول الله قد قال : اقبلوا
فولوا .. وقالوا انما انت ساحر
لامر أراد الله أن يهلكوا بـه
وليس لامر حمّه الله زاجر[1]

ونستطيع أن نلمح بسهولة ، ميل كعب رضي الله عنه ، في هذه القصيدة إلى التعبيرات الاسلامية ، وذلك أمر طبيعي بالنسبة لمجتمع الصحابة في المدينة المنورة ..

كما نرى ظاهرة السرد القصصي ، فهو يذكر ان قريشاً حشدوا ، واستنفروا من يليهم ، وجاءت كعب وجاءت عامر ، الخ .. وهذه الظاهرة تسود الكثير من شعر كعب ، كما تسود نثره الفني والأحاديث التي رواها ..

---

(١) القصيدتان في سيرة ابن هشام .. ويلاحظ خلو قصيدة كعب هذه من الألفاظ الغريبة .

ولا نعدم صورة فنية مبدعة يقدمها لنا في البيت الذي يقول ، في تصوير السيوف ، انها في بياضها ودقتها ورقتها بعد ان تعرى من اغمادها كأقباس الضياء اللامعة :

وقد عُريت بيض خفاف كأنها
مقابيس ، يزهلها لعينك شاهر

واذا انتقلنا الى غزوة أحد ، وقد تغير فيها موقف المسلمين ، فقد كان النصر يوم بـــدر لهم اما يوم أُحد فكان عليهم نجد ان لهجة شعراء الانصار قد تغيرت ، فاتجهت الى التمدح بالصبر في اللقاء ، والجلد ، والثبات ونجد كعباً رضي الله عنه ، يناقض عمرو بن العاص ، وكان لم يسلم بعد :

قال عمرو بن العاص :

خرجنا من الفيفا عليهـــم كأننا
مع الصبح من رضوى الحبيك المنطّقُ(١)
تمنّت بنو النجار جهلاً لقاءنـــا
لدى جَنْب سلع والأماني تصدق

---

(١) الفيفا : القفر . ورضوى : جبل في طريق ينبع . الحبيك : الذي به حيكات اي طرائق . المنطق : الذي عليه نطاق اي حزام .

فما راعهم بالشر الا فُجـاءة

كراديس خيل في الأزقة تمرق

ارادوا لكيما يستبيحوا قبابنـا

ودون القباب اليوم ضرب محرّق

وكانت قباباً أومئت قبل ما ترى

اذا رامها قوم ابيحوا وأُخنقوا

كأنّ رءوس الخزرجيين غدوة

وايمانهـم بالمشرفيّـة بَرْوَق[1]

وقال كعب رضي الله عنه يجيبه :

ألا ابلغن فهراً على نأى دارها

وعندهم من علمنا اليوم مَصدَق

بانا غداة السفح من بطن يثرب

صبرنا ، ورايات المنية تخفق

صبرنا لهم ، والصبر منا سجيةٌ

اذا طارت الابرام نسمو ونرتق[2]

---

(١) البورق : نبات له أصول تشبه البصل .

(٢) الأبرام : اللئام . ونرتق : نصفح .

على عادة تلكم جرينا بصبرنا
وقدما لدى الغايات نجري فنسبق

لنا حومة لا تستطاع ، يقودها
نبي اتى بالحق ، عفٌّ مصدّق

ألا هل أتى افناء فهرٍ بن مالك
مقطّعِ اطراف ، وهامُ مُفلَّق

وهذه القصيدة سلسة ، مع اداء قوي ، وان كان التمدح فيها انما كان بالصبر والجلد ، كما اسلفت القول.

ولست بسبيل احصاء نقائض كعب رضي الله عنه ، فهي كثيرة ، وقد كان كعب مكثراً . ولكن اذكر انه ناقض الكثير من الشعراء ، من ذلك على سبيل المثل ، مناقضة لعباس ابن مرداس السلمي شاعر بني سليم ، حينما أخذ يدافع عن يهود بني نضير ، ويمتدحهم ، فانبرى كعب يرد عليه وينقض اقواله ، في قصيدة يقول في مطلعها :

لعمري لقد حكّت رحى الحرب بعدما
اطارت لؤيا قبل شرقاً ومغربا[1]

---

(١) هذه النقائض في سيرة ابن هشام ، وذكرها ايضاً الاستاذ « أحمد الشايب » في كتابه « تاريخ النقائض في الشعر العربي » ط ٣ ص ١٥٥ — ١٥٦ ، ووهم فجعل كعباً رضي الله عنه اباً لعبد الله بن ابي رواحة !

ومناقضة لضرار بن الخطيب بن مرداس الفهري مرة أخرى في غزوة الخندق ، في قصيدتين نونيتين .

ومن نقائض يوم الخندق نقيضته لعبد الله بن الزِّبَعْرِي حيث قال (اي ابن الزبعري) :

حي الديار محا معارف رسمِها
طولُ البِلى وتراوح الاحقاب
فكأنمـــا كتَبَ اليهودُ رسومَها
الا الكنيف ومعقد الاطناب
فاترك تذكَّر ما مضى من عيشة
ومحلة خلَق المقام ، بباب
واشكر بلاء معاشر واشكرهمو
ساروا باجمعهم من الانصاب[1]
حتى اذا وردوا المدينة وارتدوا
للموت كل مجرِّب قضاب[2]
شهراً وعشراً قاهرين محمـــداً
وصحابه في الحرب خير صحاب

---

(١) اي صاروا اعلاماً .
(٢) اي كل سيف قاطع

فاجابه حسان بن ثابت بقوله :

هل رسم دارسة المقام بباب
متكلـــم لمحاورٍ بجــواب ؟
فدع الديارَ وذكرَ كل خريدة
بيضاء آنسةِ الحديثِ كعابِ
واشكُ الهموم الى الإله وما ترى
من معشر ظلموا الرسول، غضابِ
حتى اذا وردوا المدينة وارتجوا
قتل الرسول ، ومغنم الاسلاب
وغدوا علينا قادرين بايدهـــم
رُدوا بغيظهمُ على الأعقـــاب
فكفى الالهُ المؤمنين قتالهـــم
واثابهم في الأجر خير ثواب

اما كعب بن مالك رضي الله عنه ، فقد قال قصيدة ، قوية الحبك ، فيها كثير من الالفاظ الغريبة ، أكتفي هنا منها بايراد هذه الابيات[1] :

(١) سيرد نصها في النماذج الشعرية .

ومواعظٍ من ربنا نُهدى بها
بلسان ازهرَ طيب الأثوابِ
عرضتْ علينا ، فاشتهينا ذكرها
من بعد ما عرضت على الأحزاب
حِكَماً يراها المجرمون بزعمهم
حرجاً ، ويفهمها أولو الألباب
جاءت سخينة كي تغالب ربها
وليغلبن مُغالب الغــلاب[1]

وهذه الابيات الاربعة على قلتها ، اشادت بالهداية القرآنية ، وبالنبي الكريم الأزهر طيب الأثواب ، وبالانصار ، الذين استجابوا لتلك الهداية ، وآزروا الرسول ، عكس الاحزاب الذين اعرضوا عنها ، لقد تحرجوا منها ، بينما اسرع اولو الألباب الى الاستجابة لها بعد تفهم ووعي . ولم تكتف قريش بذلك ، بل جاءت لكي تغالب الغلاب القوي . فاي مصير لهؤلاء الذين يغالبون الله الواحد القهار ؟

---

(١) المراد بسخينة قريش ، وقد تقدم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا البيت ص ٥٤ ، وفي سيرة ابن هشام انه لما قال كعب رضي الله عنه هذا البيت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا » .

الفَصلُ الرّابع

نماذج من شعره



نماذج من شعره :

(١)

نصل السيوف

هذه القصيدة القافيّة التي قالها كعب بن مالك رضي الله عنه يوم الخندق ، وفيها بيته المشهور .

نصل السيوف اذا قصرن بخطونا
قدماً ، ونلحقها اذا لم تلحق

وهو البيت الذي قال عنه روح بن زنباع انه اشجع بيت وصف به رجل قومه ! : وقد نسب ابن قتيبة في الشعراء هذا البيت الى ربيعة بن مقروم ، وهو خطأ : —

من سره ضرب يمعمع بعضُــه
بعضاً كمعمعة الاباء المحرَق[1]

(١) المعمعة : صوت النار تلتهم ما يحدث صوتاً والاباء : القصب .

فليأت مأسدة تسن سيوفهـــا
بين المذاد وبين جذع الخندق[1]

في عصبة نصر الالـــه نبيَّـــه
بهمو وكان بعبده ذا مرفـــق

دربوا بضرب المعلَّمين واسلموا
مهجات أنفسهم لرب المشرق[2]

في كل سابغة تخط فضولهـــا
كالنّهْيِ – هبت ريحه – المترقرق[3]

بيضاءَ محكمةٍ كأن قتيرهـــا
حدق الجنادب ذات شك موثقِ[4]

---

(١) المأسدة : مجمع الأسود .

(٢) تدربوا على ضرب ابطال الرجال ، باذلين مهجاتهم في سبيل الله .

(٣) السابغة : الدرع ، النهي : الغدير : والمعنى ان سردها يتلامع كالغدير تحرك الريح مياهه فتماوج : وهذه صورة مبدعة ، نجد مثلها في شعر ابيه ص ٢٣ .

(٤) القترة : حلقة الدرع يقصد ان القتير اي حلقات هذه الدرع تبدو صغيرة لامعة كحدقات الجنادب ، وهي مشبكة بعضها في بعض شبكاً محكماً موثقاً ، وهذه صورة شاعرية دقيقة .

جدلاءَ يحفزها نجـــادُ مهنـــدٍ
صافي الحديدة ، صارمٍ ذي رونق[1]

تلكم ، مع التقوى ، تكون لباسَنا
يوم الهياج ، وكلَّ ساعة مَصْدَقِ[2]

نصل السيوفَ اذا قصرن بخطونـــا
قدماً ، ونلحقها اذا لم تلحق !

فترى الجماجم ضاحياً هاماتهـــا
ـ بله الأكف ـ كأنها لم تُخْلَقِ[3]

نلقى العدو بفخمةٍ ململومـــة
تنفي الجموع ، كرأس قدس المشرق[4]

---

(١) جدلاء : مفتولة . يحفزها نجاد مهند : اي مشدودة الى أصل سيف صقيل .

(٢) اي هذه السيوف هي لباسنا يوم الهيجاء ، ولكنها ليست وحدها ، فان هناك لباساً آخر مهماً هو التقوى : وفيه اشارة بارعة لقوله تعالى : « ولباس التقوى ذلك خير » .

(٣) ضاحياً هاماتها : اي مقطعة هاماتها ، كأنها لم تخلق ، اما الاكف فدع ذكرها .. او حدث ولا حرج .. والفخر في هذا البيت فخر عظيم !

(٤) فخمة : كتيبة عظيمة . ململومة : مجموعة . وقدس المشرق : جبل والمعنى ان كتيبتنا عظيمة تفرق الكتائب ، جمعت كما يتجمع الجبل العظيم .

ونعد للاعداء كل مقلّص

ورد ٍ ، ومحجول القوائم، أبلق ِ[1]

تردى بفرسان كأن كماتَهم

عند الهياج، أسودُ طل ّ مُلْثَق ِ[2]

صُدُق ٍ ، يعاطون الكماة حتوفهم

تحت العماية بالوشِيج المزهق[3]

أمر الاله بربطها لعدوه

في الحرب ، ان الله خير مُوفق

لتكون غيظاً للعدو ، وحُيّطا

للدار ، ان دلفت خيولُ النُّزّق

ويعيننا الله العزيز بقوة

منه ، وصدق ِ الصبر ساعةَ نلتقي

---

(١) المقلص : فرس طويل القوائم ضامر . ورد : يضرب لونه الى الحمرة المائلة للصفرة، والتحجيل: البياض في قوائم الفرس . وابلق : اي في قوائمه سواد وبياض .

(٢) الطل : الندى او المطر الخفيف . ملثق : اي سبب زلقاً وطيناً ، والأسود اجوع ما تكون في هذه الحالة لانها لا تستطيع الحصول على فرائسها .

(٣) العماية : شدة غبار المعركة . الوشيج : المزهق الاختلاط الشديد الذي يزهق الارواح !

ونطيع امر نبينــا ونجيبــه
واذا دعا لكريهة لم نُسبق[1]

ومتى ينادي للشدائد نأتِهــا
ومتى نر الحومات فيها نَعْنِق

من يتبع قولَ النبي فانــه
فينا مطاع الأمر حقٌّ مصدق

فبذاك ينصرنا ويظهر عزنــا
ويصيبنا من نيل ذاك بمفرق

ان الذين يكذبون محمـــداً
كفروا وضلوا عن سبيل المتقي

(٢)

طرقت همومُك ..

هذه القصيدة قالها كعب رضي الله عنه يرثي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

طرقت همومُك فالرقاد مسهّدُ
وجزعت ان سُلخ الشباب الأغيد

---

(١) اي كنا اسبق من غيرنا ، فلا ندع الغير يسبقنا .

ودعت فؤادَكَ للهوى ضَمرِيةٌ
فهواك غوري، وصحبك مُنجِدُ[1]

فدع التماديَ في الغِواية سادراً
قد كنتَ في طلب الغوايةِ تُفنِدُ[2]

ولقد أنى لك ان تناهى طائعاً
أو تستفيق اذا نهاك المُرشد[3]

ولقد هُددتُ لفقد حمزة هَدَّة
ظلت بنات الجوف منها ترعد[4]

ولو انه فجعت حراءُ بمثلــه
لرأيت راسيِ صخرها يتبدد[5]

---

(١) المعنى ان الحبيبة تهامية .. بينما الصحب او الركب منجدون ، اي يقصدون نجداً فشتان بين مشرق ومغرب .

(٢) سادراً : تائهاً . تفند : تطلب الباطل ، والفنـــد هو الكذب .

(٣) أنى : حان . تناهى : تنتهي ، وبهذا البيت ينهي الشاعر مقدمته الغزلية ليتحدث عن الحادث الجلل ، الذي هزه هزاً ، ونقله من الحياة الوادعة الغافلة عن جلائل الاحداث .

(٤) بنات الجوف : كناية عن الفرائص .

(٥) راسي صخرها : اي ما رسا منه وثبت وليس رأساها كما ذهب الى ذلك صاحب كتاب « حسن الصحابة في شرح اشعار الصحابة » فانه يتعين في هذه الحالة ان يقول يتبددان ، وهذا لا يرد .

قرمٍ تمكن في ذوابة هـاشم
حيث النبوة ، والندى ، والسؤدد

والعاقرُ الكومَ الجلاد اذا غدت
ريح ، يكاد الماء فيها يجمدُ [1]

والتارك القِرن الكميَّ مجدلاً
يوم الكريهة ، والقنا يتقصَّد [2]

وتراه يَرْفِلُ في الحديد كأنه
ذو لِبدة شَثْنُ البراثِنِ أربدُ [3]

عم النبي محمد ، وصفيه
ورد الحِمامَ ، فطاب ذاك المورد

وأتى المنية مُعلَماً في أسرة
نصروا النبي ومنهمو المستشهد

---

(١) العاقر : الناحر . الكوم : الأبل ، الجلاد : السمينة ، اي الذي يذبح سمان الإبل في ليالي الشتاء القارسة ليكرم بها الضيوف .

(٢) يتقصد : يتكسر ، اي الرماح تتقصف لاشتداد المعركة .

(٣) اللبدة : الشعر الذي على كتفي الأسد ، شثن البراثن : اي خشن المخالب . أربد : عبوس اي كأنه أسد غضوب .

ولقد إخال بذاك هنداً بُشرت
لتميت داخل غصةٍ لا تبرد [1]

مما صبحنا بالعقنقـــل فوقهـــا
يوماً تغيّب فيه عنها الأسعد [2]

وببئر بدر اذ يرد وجوهَهـــم
جبريل ، تحت لوائنا ومحمد [3]

حتى رأيت لدى النبي سُراتَهم
قسمين : نقتل من نشاء ونطرد

فاقام بالعطن المعطّـــن منهمو
سبعون : عتبةُ منهمو والأسود [4]

---

(١) هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، التي حرصت على قتل حمزة لتشفي ثأرها يقول : لكن غصتها لن تبرد .. باقية من يوم بدر

(٢) العقنقل : الكثيب الرملي الذي نزلت عنده قريش ببدر ، وكان ذلك اليوم مشئوماً على قريش خصوم الاسلام غاب سعده.

(٣) سبق ان ذكرت ان هذا البيت افخر بيت قالته العرب ، كما روى المرزباني في « معجم الشعراء » في ترجمة كعب رضي الله عنه .

(٤) عتبة : هو ابن ربيعة ابو هند ، والأسود هو ابن عبد الأسد بن هلال المخزومي .

وابنُ المغيرةِ قد ضربنا ضربــة
فوق الوريد لها رشاشٌ مـُزْبد
وأميةُ الجُـمَـحِيُّ قدّم قبلــه
عضْبٌ ، بأيدي المؤمنين ، مهنّدُ
فاتاكِ فلُّ المشركين كأنهــم
والخيل تثقفهم نعامٌ شُرَّدُ[1]
شتانَ من هو في جهنم ثاويــاً
ابداً ، ومن هو في الجنان مخلّد

(٣)

جاءت سخينة

هذه القصيدة البائية ناقض بها قصيدة ابن الزبعري يوم الخندق :

أبقى لنا حدث الحروب بقية
من خير نِحلة ربنا الوهاب[2]

---

(١) فاتاك : لعل الخطاب لهند ، فل : اي الهاربين .
(٢) النحلة : بكسر النون العطية : يقول ابقت لنا حروبنا على كثرتها خيراً كثيراً من عطايا الله الوهاب .

بيضاءَ مشرفة الذرى ومعاطنا
حمَّ الجذوع ، غزيرة الاحلاب (1)

كاللُّوب ، يـُبذل جمـّها وحصيلها
للجار ، وابن العم ، والمنتاب (2)

ونزائعاً مثل السراح ، نمى بها
علف الشعير ، وجـِزَّة المقضاب (3)

عَرِيَ الشَّوى منها ، وأردف نحضُها
جردَ المتون وسائر الآراب (4)

---

(١) بيضاء مشرفة الذرى : دوراً بيضاء عالية الاطناف ، ومعاطن
اي حظائر للماشية ، غزيرة الاحلاب ، في اسيجة سوداء الجذوع .

(٢) اللوب : جمع لوبة ؛ وهي الحرة : اي ان تلك الحظائر يب
انتاجها وما تجم ضروعها من حليب ، وما تحفل به منه للجيران ، والاقارب
وابناء السبيل، والاضياف .

(٣) النزائع : الخيل . كالسراح : كالذئاب عدواً ، ونمى بها : غذا
علف الشعير ، وما جزه المقضاب ؛ المنجل من حشيش .

(٤) الشوى: القوائم ، وأردف نحضها : اي ان لحمها مترادف بعض
فوق بعض ، اما متونها فجرد لا شعر عليها ، وكذلك سائر الآراب : ا
الاعضاء جمع ارب

قوداً تراح الى الصياح اذا غدت
فعلَ الضراء تراح للكلاّب[1]

وتحوط سائمةَ الديـــار وتارة
تُردى العدى، وتعود بالاسلاب[2]

حوش الوحوش مُطارة عند الوغى
عُبس اللقاء، مُبينةَ الانجاب[3]

عُلفت على دِعةٍ، فصارت بُدّناً
دُخسَ البَضيع، خفيفة الاقصاب[4]

يعْدون بالزغف المضاعف شكه
وبمُترصات في الثقاف صِياب[5]

---

(١) قوداً : طويلة الاعناق تستريح لصيحة الحرب ، كالكلاب الضارية المعدة للصيد ترتاح لدعوة الصيد من الكلاب : أي الذين يعدونها للصيد .

(٢) في السلم تحمى الديار والماشية ، وفي الحرب تغزو فتعود بالاسلاب.

(٣) في حالة حراستها تطرد الوحوش المفترسة ، اما في الحرب فهي تطير طيراناً ، عابسة ، ولا غرو ، فهي اصيلة مبينة الانجاب ، ظاهرة النجابة .

(٤) علفت : اكلت العلف في دعة ، فصارت بدناً ، سمينة ، دخساً : مكتنزة لحماً ، والبضيع : اللحم . ولكن اقصابها : امعاءها خفيفة فهي على سمنتها ضامرة .

(٥) هذه الخيل تعدو بفرسانها في زغفهم اي في دروعهم المضاعفة ، التي كانت شكاتها او حلقاتها متراصة ؛ حلقتين حلقتين ، ومعهم المترصات : الرماح المقومة المثقفة : المعدلة الصياب : التي تصيب اهدافها .

وصوارم نزع الصياقل عَلْبها
وبكل اروع ، ما جد الانساب[1]

يصل اليمينَ بمارنٍ متقارب
وُكلت وقيعته الى خبّاب[2]

واغرَّ ازرقَ في القناة كأنــه
في طُخْيَةٍ الظلماء ضوءُ شهاب[3]

وكتيبةٍ تَنفى القِران قتيرُها
وتردُ حد قواحز النُّشاب[4]

---

(١) وهي تعدو ايضاً بكل اروع ماجد النسب ، يحمل صارماً بتار
قد نزع شحاذ السيوف وصاقلها علبها : اي ازال صلابته فارهفه .

(٢) هذا الأروع يصل مارنه : رمحه المرن ، المتقارب القصير بيمين
اقداماً وشجاعة . ذلك الرمح الذي وكل امر وقيعته : صقل رأسه المرهف ا
« خباب » ذلك الذي اشتهر بصقل الرماح والسيوف بمكة .. وفيه معنى قو
المشهور :

نصل السيوف اذا قصرن بخطونا قدماً، ونلحقها اذا لم تلحق

(٣) ذلك الرمح : اغر : لامع تشتد لمعته حتى ليخيل اليك انه ازر
تحسبه، اذا اشتدت الطخية : الظلمة الشديدة : ضوء شهاب

(٤) وكتيبة : تنفى القران : تبطل ضرب السيف بقتيرها ، برؤوس
مسامير ها المحكمة المحبوكة ، وترد حد قواحز : المهلكات ، من النشاب : النبل

جأوى ململة كأن رماحهـا
في كل مَجْمعَةٍ صريمةُ غاب[1]

تأوي الى ظل اللواء كأنـه
في صَعدة الخطي فيءُ عقاب[2]

أعيتْ ابا كرب واعيت تبعـا
وأبت بسالتها على الاعراب[3]

ومواعظ من ربنا نُهدى بهـا
بلسان ازهر طيب الاثواب

عرضت علينا فاشتهينا ذكرهـا
من بعد ما عرضت على الاحزاب

---

(١) جأوى : اصلها جأواء : اي تضرب حمرتها الى السواد اي ان هذه الكتيبة تلملمت وتجمعت ، فأصبحت تبدو حمرتها سواداً ، وتبدو رماحها كأنها صريمة غاب تجمعت فالقيت في مكان واحد . اي اعواد قصب الغاب .

(٢) تأوي هذه الكتيبة او تستظل بظل اللواء الذي يبدو مرتفعاً على رمح صعدة ، مستوية مرتفعة من الرماح الخطية المشهورة التي ثقفت بالخط موضع بالخليج العربي – تبدو وكأنها ظلال عقاب يحوم في الجو

(٣) وهذه الكتيبة لشجاعتها اعجزت الشجعان من امثال ابي كرب الحميري ، وتبع ، واستعصت على الاعراب، على ضراوتهم .

حكماً يراها المجرمون بزعمهم
حرجاً ويفهمهـا اولو الألباب
جاءت سخينة كي تغالب ربها
وليُغلبن مُغـالب الغـلاب

(٤)

وعلمنا الضرب آباؤنا

القصيدة التونية التي قالها يوم أُحد :

انك عمـر ابيك الكريـ
م ان تسألني عنك من يجتدينا[1]
فان تسألي ثم لا تُكـذبي
يخبرْك من قد سألت اليقينا
بانا ليـالي ذاتِ العظـا
م كنا ثمالاً لمن يعترينا[2]

---

(١) يجتدينا : يطلب مساعدتنا
(٢) ثمالا : غياثاً

نلوذ النجود بـاذرائنـا
من الضر في ازمات السنينا [1]

بجدوى فضول اولى وُجدنا
وبالصبر والبذل في المعدمينا [2]

وابقت لنـا جلَمات الحرو
ب ممن نوازي لَدُن ان برينا [3]

معاطنَ تهوي اليهـا الحقو
ق يحسبها من رآها الفتينا [4]

تخيّس فيهـا عناق الجما
ل سحماً، دواجن، حمراً، وجونا [5]

---

(١) تلوذ تلجىء: النجود : المستنجدين : باذرائنا باكنافنا وحمانا .

(٢) اي نبذل العطاء الذي في وسعنا

(٣) جلمات : قطعات الحروب : اي ان حوادث الحروب التي تنشب بيننا وبين اقراننا منذ خلقنا ابقت لنا .

(٤) معاطن : حظائر يقصدها أصحاب الحقوق : اصحاب الحصص الذين لهم نصيب فيها ، تبدو هذه المعاطن لسوادها كالفتين : كالحرات السوداء .

(٥) تخيس : تذلل فيها الوان من الابل بين السحم السود ، الدواجن : المقيمة ، والحمر ، والجون : البيض والكلمة من الاضداد .

ودفّاع رَجْل كموج الفرا
ت ، يقدم جأواء جولاً طحونا [1]

ترى لونها مثل لون النجو
م رجراجة تُبرق الناظرينا [2]

فان كنت عن شأننا جاهلاً
فسل عنه ذا العلم ممن يلينا

بنا كيف نفعل ان قلّصت
عوانا، ضروساً، عضوضاً حجونا [3]

ألسنا نشد عليها العصا
بَ حتى تَدُرَّ، وحتى تلينا [4]

---

(١) دفاع : سيل . رجل مشاة اي : سيل من المشاة كأنه نهر الفرات تدفقاً يتقدم جأواء : كتيبة يضرب لونها الى الحمرة والسواد لكثرة سلاحها وخيولها، جولا : ضخمة : طحونا : تطحن كل ما يصادفها .

(٢) تلمع اسلحتها كما تلمع النجوم ، رجراجة متحركة تخطف حركتها الانظار . والصورة بديعة

(٣) قلصت : وثبت : والعوان ، والضروس ، والعضوض والحجون : كلها وصف للحرب . والحجون المعوج الاسنان .

(٤) شبه الحرب بالناقة يعصب ضرعها ليلين ويدر اللبن ، كذلك الحرب يشدونها شداً ليحتدم أوارها

ويوم لـــه وهج دائـــم
شديد التهاول ، حامي الارينا[1]

طويل شديد أوار القتـــا
ل تنفى قواجزُه المُقرفينا[2]

نخال الكمـــاةَ باعراضـــه
ثمالا ، على لذة مُنزفينا[3]

تعـــاورَ ايمـــانُهم بينهم
كؤوسَ المنايا بحد الظبينا[4]

شهدنا فكنـــا اولى باسه
وتحت العماية ، والمعلَمينا[5]

---

(١) الأرين : جمع اره كسنة وسنين : والأره : الموقد .

(٢) قواجزه : اضطرابه . اي ان شدته ترد المقرفين : الضعفاء عن اقتحام هوله .

(٣) تحسب خائضي هذه الحرب ثمالا ، سكارى ينزفون يصخبون من السكر والعكوف على لذاتهم .

(٤) الظبين : جمع ظبة ، حد السيف . اي ان هؤلاء السكارى بالحرب يتداولون كؤوس المنايا على اطراف سيوفهم .

(٥) كنا ابطال هذه الحرب ، نختفى تارة تحت العماية تحت غبار المعركة ، ونظهر احياناً فنكون معلمين بارزين

بخرس الحسيس ، حسانٍ رواءٍ

وبصريـّة ، قد اجمن الجفونا[1]

فما ينفللن ، وما ينحنين

وما ينتهين ، اذا ما نُهينا

كبرق الحريق بايدي الكماة

يفجعن بالظل هاماً سكونا[2]

وعلمنا الضربَ اباؤنا

وسوف نعلِّم ايضاً بنينا[3]

جلادَ الكماة ، وبذلَ التلا

د ، عن جل احسابنا ما بقينا

اذا مرّ قرنٌ كفى نسلُه

واورثه بعده آخرينا

---

(١) خرس الحسيس : السيوف . رواء : ارتوت من دماء الاعداء . بصرية : منسوبة الى البصرة . اجمن: فارقن اغمادهن .

(٢) سيوف كالبرق تفجع الرؤوس الثوابت بمجرد ان تظهر ظلالها

(٣) هذا البيت جميل وسلس ، وكذلك الابيات التي تليه .

واعيد الى ذاكرة القارىء قول ابيه مالك بن أبي كعب :

وهم اورثوني مجدهم وفعالهم فأقسم لا يزرى بهم ابداً عقبى

نشب وتهلك ابــاؤنــا
وبينا نربي بنينا فنينــا

سألت بك ابن الزبعري فلم
انبأك في القوم الا هجينا

خبيثاً ، تطيف بك المُنْدِياتُ
مقيماً على اللؤم حيناً فحينا[1]

تبجست تهجو رسول المليـ
ـك قاتلك الله جلفاً لعينا[2]

تقول الخنا ثم ترمي بــه
نقي الثياب تقياً أمينا ! ؟

(٥)

نبي له إرث عزة

هذه القصيدة قالها يوم بدر :

الاهل اتى غسان في نأي دارها
واخبُر شيء بالأمور عليمـُها

(١) المنديات : المخزيات : ومنها يندى لها الجبين
(٢) تبجست : تفجرت . انبجس الماء : انفجر .

بان قد رمتنا عن قسي عداوةً
معدٌ ، معاً جهالها وحليمهـــا

لانا عبدنا الله ، لم نرجُ غيرَه
.رجاء الجنان ، اذا اتانا زعيمها

نبي له في قومه ارث عـــزة
واعراق صدق هذبتها أرومها[1]

فساروا وسرنا فالتقينا كأننـــا
اسود لقاء ، لا يرجى كليمها[2]

ضربناهمو حتى هوى في مكرِّنا
لمنخر سوء ، من لؤى ، عظيمها[3]

فولوا ودسناهمْ ببيض صوارم
سواء علينا حلفها وصميمها[4]

(١) الارومة : الأصل .
(٢) الكليم : الجريح .
(٣) المكر : موضع الكر ، مكان الحرب
(٤) الحليف : من ليس من القوم ، ولكنه حليفهم والصميم : هو الخالص

(٦)

تغيّر القمر

هذه القصيدة قالها كعب رضي الله عنه في رثاء قتلى مؤتة :

نام العيون ، ودمع عينك يَهْمُلُ
سحّاً ، كما وكَف الطباب المُخضَلُ[1]

في ليلة ، وردت عليّ همومها
طوراً احن ، وتارة اتململ[2]

واعتادني حزن فبت كأنني
ببنات نَعش ، والسماك موكل

وكأنما بين الجوانح والحشى
مما تأوبني شهاب مُدخَل

وجداً على النفر الذين تتابعوا
يوماً بمؤتة ، اسندوا لم ينقلوا

صلى الاله عليهمُ من فتية
وسقى عظامهمو الغمامُ المُسبِل

---

(١) الطباب : هنا بمعنى السحاب .
(٢) في هذا البيت تصوير بديع للقلق ، وكذلك الذي يليه .

صبروا بمؤتة للالــه نفوسهــمْ
حذر الردى ، ومخافةً ان ينكلوا
فمضوا امــام المسلمين كأنهــم
فُنُق عليهن الحديد المُرفَل[1]
اذ يهتــدون بجعفر ولوائــه
قدام اولهمْ ، فنعــم الأول
حتّى تفرجت الصفوف ، وجعفر
حيث التقى وعث الصفوف مجدّل[2]
فتغيّـر القمــرُ المنير لفقــده
والشمس قد كسفت وكادت تأفل
قرم علا بنيــانه من هــاشم
فرعاً أشمَّ ، وسؤدداً ما يُنقَل
قوم بهم عصم الالــه عبــاده
وعليهمو نزل الكتــاب المنزل

---

(١) الفنق : جمع فنيق : وهو فحل الابل الذي يتقدمها . المرفل : الذي يرفل في الحديد ، اي سابغة عليه يكاد يجرها .

(٢) الوعث . المكان الذي تغيب فيه الاقدام ، ويغيب المشي عليه .

فضلوا المعـــاشر عزة وتكرمـــاً
وتغمدت ، احلامهم مـــن يجهل

لا يطلقون الى السفاه حُبَاهُمو
ويُرى خطيبهمو بحق يفصل[1]

يا هاشماً ، ان الاله حباكمو
ما ليس يبلغه اللسان المِقصَل[2]

قوم لاصلهمو السيادة كلهـــا
قدماً ، وفرعهمو النبي المرسل

بيض الوجوه ترى بطون اكفهمْ
تندى ، اذا اعتذر الزمان الممحل

ويهديهم ، رضى الالـــه لخلقه
وبجدهم ، نُصرَ النبي المرسل .

---

(١) الحبى : جمع حبوة : اي لا يحلون حبواتهم للسفاهات

(٢) المقصل : القاطع .

باللسان وباليـــد

قال هذه القصيدة في يوم خيبر :

ونحن وردنا خيبراً وفروضه
بكل فتى عاري الاشاجع مذودِ
جوادٍ لدى الغايات لاواهن القوى
جريء على الاعداء في كل مشهد
عظيم رماد القدر في كل شتوة
ضروب ، بنصل المشرفي المهند
يرى القتل مدحاً ان اصاب شهادة
من الله يرجوها ، وفوزاً باحمد
يذود ويحمي عن ذمار محمد
ويدفع عنه باللسان وباليـــد
وينصره من كل امر يريبه
يجود بنفسٍ دون نفس محمد
يصدمه بالانباء بالغيب مخلصاً
يريد بذاك الفوز والعز في غد

(٨)

قضينا من تهامة

من قصيدة طويلة قالها حينما عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على المسير الى الطائف :

قضينا من تهامة كل وتر
وخيبر ، ثم احجمنا السيوفا
نخيرنا ، ولو نطقت لقالت
قواطعهن ، دوساً أو ثقيفاً
فلست لحاصن ان لم تردها
بساحة داركم منا ، ألوفا [1]
فننتزع العروش ببطن وَج
ونترك داركم منكم خُلُوفا [2]
ونردى اللات والعزى ووداً
ونسلبها القلائد والشنوفا [3]

---

(١) الحاصن والحصان : المرأة العفيفة اي لست ولدها اذا لم احقق ما اتوعدكم به

(٢) وادي وج معروف بالطائف بهذا الاسم حتى اليوم ، والخلوف : هو الحي الذي تركه الرجال فلم يبق به الا النساء .

(٣) اللات والعزى وود ، اسماء اصنام ، والقلائد : ما يلبس في العنق، والشنوف : ما يلبس في الأذن .

(٩)

كأننا أسود

من قصائده يوم أُحد قصيدة عينية، منها قوله :

فجئنا الى موج من البحر وسطه
احابيش ، منهم حاسر ومقنعُ[1]
ثلاثة آلاف ، ونحن نصيةٌ
ثلاث مئين ، وان كثرنا فاربع [2]
فراحوا سراعاً موجعين كأنهم
جهام هراقت ماءَه الريحُ، مقلع [3]
ورحنا وأفرانا بطاء ، كأننا
أسود على لحم ببيشة ظُلّعُ [4]

---

(١) الاحابيش : حلفاء قريش . الحاسر : من لا درع له ولا خوذة ، والمقنع : عكسه .

(٢) نصية : مختارون ، وهو في هذه الابيات يتحدث عن بدر ، مفتخراً بالنصر فيه ان افتخرت قريش بيوم أحد .

(٣) اي رجعوا كالسحاب الخفيف ، والصورة بديعة

(٤) رجعنا بطاء لا نخاف شيئاً ، كأننا أسود من أسود بيشة ، تعود الى مكامنها شبعى تظلع (تعرج) مما اكلت من لحم فرائسها . وبيشة بلدة معروفة في المملكة العربية السعودية كانت بها على ما يبدو غابة تسكنها الأسود .

الفَصَلُ الخامِسَ

نـــثره



حديث التوبة :

سبق ان تحدثت عن شخصية كعب الفنية ، وقلت ان لكعب رضي الله عنه ، نصوصاً نثرية رائعة، تمتاز بالتصوير الشاعري ، وباللماحية المتوقدة ، وبالالتفاتة الذكية ..

وفي هذا الفصل اقدم حديث توبته ، النص الذي تتجلى فيه هذه السمات بابرز صورها .. بيد اني اكتفيت في التعبير عن المواقف الجمالية ، او عن المواقف الجديرة بالتأمل من الجانب الخُلقي او الفني بان وضعت خطاً تحت العبارة التي تتوفر فيها هذه السمات أكثر من غيرها ، وقد اعقب عليها احيانا في الهامش ..

قال كعب رضي الله عنه :

« لم اتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها الا في غزوة تبوك ، غير اني **كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يُعاتب احداً تخلف عنها** ، انما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد عير قريش ، حتى جمع الله

بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام ، وما احب ان لي بها مشهد بدر ، **وان كانت بدر اذكرَ في الناس منها !**

كان من خبري **اني لم اكن قطّ اقوى ولا أيسرَ حين تخلفت عنه في تلك الغزاة**[1] والله .. ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد في غزوة الاورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد ، **واستقبل سفراً بعيداً !، ومفازاً !، وعدداً كثيراً !** ، فجعل للمسلمين امرهم ليتأهبوا أُهبة غزوهم واخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ، **لا يجمعهم كتاب حافظ**[2] فما رجل يريد ان يتغيب الا ظن انه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم **حين طابت الثمار والظلال** وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، فطفقت

(١) موقف عظيم في الصراحة والصدق وتقرير الحقيقة .
(٢) اي لم يعمل لهم احصاء ولا ديوان .

أغدو لكي اتجهز معهم فارجع ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي انا قادر عليه ، **فلم يزل يتمـادى بي حتى اشتـد الناس الجد** ، فاصبح رسول الله صـلى الله عليـه وسلم والمسلمون معه ، ولم اقض من جهازي شيئاً ، **ثم غدوت ، ثم رجعت ولم اقض شيئاً**[1] فلم يزل بي حتى اسرعوا **وتفارط الغزو !** ، وهممت ان ارتحل فادركهم ، **وليتني فعلت** ، فلم يُقدّر لي ذلك ، فكنت اذا خرجت في الناس ، بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطفت فيهـم احزنني اني لا أرى الا رجلا **مغموصاً**[2] **عليه النفاق، او رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء .**

« ولم يذكرني رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، حتى بلغ تبوك ، فقال، وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب ؟ فقال رجل من بني سِلمة .. يا رسول الله حَبَسَه برداه ونظره في عِطفه[3] . فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت . والله ، يا رسول الله ما علمنا عليه الا خيراً . فسكت رسول الله ،

(١) جملة متحركة ، بالغة الدلالة على التردد !

(٢) اي يعاب عليه

(٣) يدل هذا النص على أن كعباً رضي الله عنه كان أنيقاً جميل المنظر والثياب .

صلى الله عليه وسلم .

« فلما بلغني انه توجه قافلاً ، **حضرني همي** ، فطفقت اتذكر الكذب ، وأقول : ماذا أخرج من سخطه غداً ؟ **واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من اهلي !** ، فلما قيل؛ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أطل قادماً ، **زاح عني الباطل !** وعرفت أني **لن اخرج منه ابداً بشيء فيه كذب !** فاجمعت صدقه .

« واصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قادماً ، وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، **فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم** ، وبايعهم واستغفر لهم ، **ووكل سرائرهم الى الله !** فجئته .. فلما سلمت عليه تبسم **تبسم المغضب !** ثم قال : تعالَ . فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلّفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ، اني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من اهل الدنيا **لرأيت ان سأخرج من سخطه بعذر** ، والله .. **لقد اعطيت جدلاً !** ولكني والله لقد علمتُ لئن حدثتك

اليوم حديث كذب لترضى به عني ليوشكن الله ان يُسْخِطك علي . ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه اني لارجو فيه عفو الله ! لا والله ما كان لي من عذر ! ! والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ! .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اما هذا فقد صدق ! فقم حتى يقضي الله فيك . فقمت .. وثار رجال من بني سلِمة فاتبعوني .. فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ان لاتكون اعتذرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اعتذر اليه المخلفون ؟ ! قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى اردت ان ارجع فاكذب نفسي ! ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي احد[1]؟ قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا مُرارة بن الربيع العَمْري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي ..

« ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا ايها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناسُ ،

---

(١) يدل هذان السؤالان على الاستقراء الدال على بعد النظر

وتغيروا لنا ، **حتى تنكرت في نفسي الارض فما هي التي اعرف !**

« فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

« **فأما صاحباي**[1] .. **فاستكانا ..** وقعدا في بيوتهما يبكيان ! .

واما انا .. فكنت اشبَّ القوم[2] واجلدَهم فكنت اخرج فاشهد الصلاة مع المسلمين ، واطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فاسلم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصلاة ، **فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي ام لا ؟** ثم اصلي قريباً منه **فاسارقه النظر !** فاذا **اقبلت على صلاتي أقبل اليّ ، واذا التفت نحوه اعرض عني** ، حتى اذا طال علي ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط ابي قتادة[3] ، وهو ابن عمي واحب

---

(١) اكمال جوانب الصورة ، وضم اطراف السرد

(٢) هذا النص يعين على تقريب عمره آنذاك بحوالي ٣٥ عاماً .

(٣) في سيرة كعب التي اوردها محقق الديوان ان كبشة بنت كعب تزوجت من ثابت بن ابي قتادة الانصاري .

الناس اليّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام ! فقلت :
يا ابا قتادة ! أنشدك الله هل تعلمني احب الله ورسوله ؟
فسكت ! **فعدت له فنشدته . فسكت ! فعدت له فنشدته**[1] :
فقال : الله ورسوله أعلم. **ففاضت عيناي ! ، وتوليت حتى
تسورت الجدار**[2] .

« فبينما انا أمشي بسوق المدينة ، اذا نبطي من انباط
اهل الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعة بالمدينة يقول : من يَدُل
على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذْ
جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان[3] فاذا فيه[4] : أما
بعد ، فانه قد بلغني ان صاحبك قد جفاك ! ولم يجعلك الله
بدار هوان ولا مضيعة ،فالحق بنا نُواسك » فقلت لما قرأتها :
وهذا أيضاً من البلاء ، **فتيممت** بها التنور ، فسجرته بها[5]

(١) عبارة متحركة أخرى فيها لهاث ولهفة !
(٢) لم يخرج من الباب .. تصويراً لحيرته البالغة .
(٣) قال ابن حجر في « فتح الباري » : « هو جبلة بن الايهم جزم بذلك ابن عائذ ، وعند الواقدي الحارث بن ابي شمر »
(٤) في رواية : « وكنت كاتباً فقرأته فاذا فيه .. » وتدل هذه الرواية انه كان يعرف القراءة والكتابة .
(٥) اي اوقدت الفرن بالرسالة

حتى اذا مضت اربعون ليلة من الخمسين اذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك ان تعتزل امرأتك ! فقلت : أطلقها ام ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربها ، وارسل الى صاحبيَّ مثلَ ذلك ، فقلت لامرأتي : إلحقي باهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

« فجاءت امرأة هِلال بن امية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! ان هِلال بن أمية شيخ ضائع ، ليس له خادم فهل تكره ان اخدمه ؟ قال : لا .. ولكن لا يقربنْك . قالت : انه والله ما به حركة الى شيء ، والله ما يزال يبكي منذ كان من امره ما كان الى يومه هذا .. فقال لي ، بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك ، كما اذن لامرأة هلال بن امية ان تخدمه . فقلت : والله لا استأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذنته فيها ، **وانا رجل شاب** ! فلبثت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ،

وانا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما انا جالس على الحال الذي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت علي الارض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلْع باعلى صوته : يا كعب بن مالك ابشر ، فخررت ساجداً .. وقد عرَفت انه قد جاء فرج ، وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا ، حين صلى صلاة الفجر[١] ، فذهب الناس يبشروننا ، **وذهب قبل صاحبي مبشرون** ، وركض الي رجل فرساً وسعى ساع من اسلم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت اسرع من الفرس ، **فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعت له ثوبيَّ فكسوته اياهما** ببشراه ، والله ما املك غيرهما ! يومئذ[٢] ! واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيتلقاني الناس **فوجاً فوجــاً** يهنوني بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله

(١) في رواية اوردها ابن حجر « فانزل الله توبتنا حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند ام سلمة ، وكانت ام سلمة محسنة في شأني ، معتنية بأمري ، فقال يا ام سلمة : تيب على كعب . قالت : ارسل اليه ابشره ؟ قال : اذاً يحطمكم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليلة » .

(٢) اي من جنس الثياب .

عليك ! حتى دخلت المسجد ، فاذا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، جالس ، حوله الناس ، فقام الي طلحة بن عبيد الله **يهرول** حتى صافحني وهناني ، **والله ما قام الي رجل من المهاجرين غيره**[1] **، ولا انساها لطلحة !**

« فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، **وهو يبْرق وجهه من السرور !** : ابشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك امك !

« قلت : **امن عندك يا رسول الله ؟ ام عند الله ؟**

« قال : لا . بل من عند الله .

« وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم استنار وجهه **حتى كأنه قطعة قمر** ! ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله ! ان من توبتي ان **انخلع من مالي** صدقةً الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم .

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : امسك عليك

---

(١) قال ابن حجر في فتح الباري « ان النبي صلى الله عليه وسلم ، كان آخى بينه وبين طلحة لما آخى بين المهاجرين والانصار ، والذي ذكره اهل المغازي انه كان اخاً للزبير لكن كان الزبير اخاً لطلحة في اخوة المهاجرين فهو اخو اخيه .

بعض مالك فهو خير لك .

قلت : فاني أمسك سهمي الذي بخيبر .

فقلت : يا رسول الله ، ان الله انما نجاني بالصدق **وان من توبتي ان لا أحدث الا صدقا ما بقيت** فوالله ما اعلم احداً من المسلمين ابلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما ابلاني ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومي هذا كذباً ، **واني لأرجو ان يحفظني الله فيما بقيت**[1] :

« وانزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين — **الى قوله — وكونوا مع الصادقين**[2]) . فوالله ما انعم الله علي من نعمة قط بعد ان هداني للاسلام اعظم في نفسي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا أكون كذبته **فاهلك كما هلك الذين كذبوا**[3] ، فان الله قال للذين كذبوا حين انزل الوحي شرّ ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالى : (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم) — الى

---

(١) لفتة ذهنية من لفتاته البارعة .

(٢) ميله الى التحديد وثناء من الله عز وجل عليه بميزة الصدق .

(٣) مثل من تحليله ومقارنته .

قوله ـ فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

« وكنا تخلفنا ، ايها الثلاثة عن امر اولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وارجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم امرنا حتى قضى الله فيه . وبذلك قال الله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) **وليس الذي ذكر الله مما خُلفنا عن الغزو ، انما هو تخليفه ايانا ، وارجاؤه امرنا** عمن حلف له ، واعتذر اليه ، فقبل منه » .

« صحيح البخاري »

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم

٢ – تفسير ابن كثير ط دار الاندلس – بيروت

٣ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري

لابن حجر

ط مصطفى البابي

مصر سنة ١٣٧٨ – .

ج ٨ و ٩

٤ – رياض الصالحين : للنووي

٥ – الاصابة في معرفة الصحابة

لابن حجر

المطبعة الشرقية ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م

٦ – سيرة ابن هشام

عبد الملك بن هشام المعافري

المتوفي سنة ٢١٣ هـ

٧ ـ الروض الأنف : لابي القاسم عبد الرحمن السيهلي
المتوفي سنة ٥٨١ هـ
طبع المطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢هـ/١٩١٤

٨ ـ الاعلام خير الدين الزركلي
ط ٢ ج ٦ مادة كعب

٩ ـ البداية والنهاية ابن كثير
مطبعة السعادة
ترجمة كعب ص ٤٨ ج ٨

١٠ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة
ابن الاثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ
طبعة مصورة نشر المكتبة الاسلامية بطهران

١١ ـ حسن الصحابة في شرح اشعار الصحابة
علي فهمي
طبع الجزء الأول في الاستانة سنة ١٣٢٤ هـ
في مطبعة درسعادت

١٢ ـ طبقات فحول الشعراء
محمد بن سلام الجمحى المتوفي سنة ٢٣١ هـ
نشر دار المعارف شرح محمود محمد شاكر

١٣ ـ الاغاني   ابو الفرج الاصفهاني
منشورات دار مكتبة الحياة ودار الفكر
بيروت ١٩٥٦
ج ١٥

١٤ ـ شعر المخضرمين واثر الاسلام فيه
يحيى الجبوري
منشورات مكتبة النهضة ببغداد
١٩٦٤ م

١٥ ـ معجم الشعراء   محمد بن عمران المرزباني
دار احياء الكتب العربية
١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م

١٦ ـ تاريخ الأدب العربي
الدكتور عمر فروخ
دار العلم للملايين
١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
الجزء الاول

١٧ ـ تاريخ النقائض في الشعر العربي
أحمد الشايب
مكتبة النهضة المصرية
ط ٣/١٩٦٦ م

١٨ ــ ديوان كعب بن مالك

دراسة وتحقيق سامي مكي العاني
مكتبة النهضة ببغداد
الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م

١٩ ــ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب

عبد القادر البغدادي المتوفي ١٠٩٣ هـ
طبعة مصورة عن طبعة بولاق

٢٠ ــ نكت الهميان في نكت العميان

صلاح الدين خليل الصفدي
تصوير المثنى عن طبعة ١٣٢٩ هـ

٢١ ــ شرح شواهد المغنى

السيوطي
حواشي احمد ظافر كوجان
منشورات دار مكتبة الحياة
ط بيروت

٢٢ ــ معجم قبائل العرب

عمر رضا كحالة
دار العلم للملايين
بيروت ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م
الجزء الثالث ــ مادة غسان

٢٣ ـ كشف الظنون   حاجي خليفة

الطبعة الثالثة مصورة بالمطبعة الاسلامية بطهران

سنة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م

٢٤ ـ الموسوعة العربية الميسرة

طبعة سنة ١٩٦٥

وجاء فيها عن كعب : صحافي والصواب صحاني

٢٥ ـ المنجد في الأدب والعلوم

فردينان توتل

الطبعة السابعة عشرة

٢٦ ـ الحماسة   للبحتري

دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان

٢٧ ـ مجلة البيان الكويتية

العدد ٥٣/اغسطس ١٩٧٠ م

مقال للدكتور : احمد الشرباصي

المكتبة الصغيرة

صدر من هذه السلسلة بقلم صاحبها :

١ ـ توثيق الارتباط بالتراث العربي . طبع للمرة الثالثة
٢ ـ جبل طارق (نفد)
٣ ـ خمسة ايام في ماليزيا
٤ ـ كعب بن مالك

الرياض ـ ص.ب ١٥٩٠
للاتصال بالمكتبة الصغيرة